

قضايا إسلامية

سلسلة تصدر

مرة كل شهر عربى

جمهورية مصر العربية

وزارة الأوقاف

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

فتنة التكفير

بين

الشيعة .. والوهابية .. والصوفية

أ.د. محمد عمارة

القاهرة

ذو الحجة ١٤٢٧ هـ - ديسمبر ٢٠٠٦ م

العدد (١٤٢)

قضايا إسلامية

سلسلة تصدر

غرة كل شهر عربى

جمهورية مصر العربية

وزارة الأوقاف

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

فتنة التكفير

بين

الشيعة .. والوهابية .. والصوفية

أ.د. محمد عمارة

العدد (١٤٢)

القاهرة

فوالحجة ١٤٢٧ هـ - ديسمبر ٢٠٠٦ م

يشرف على إصدارها

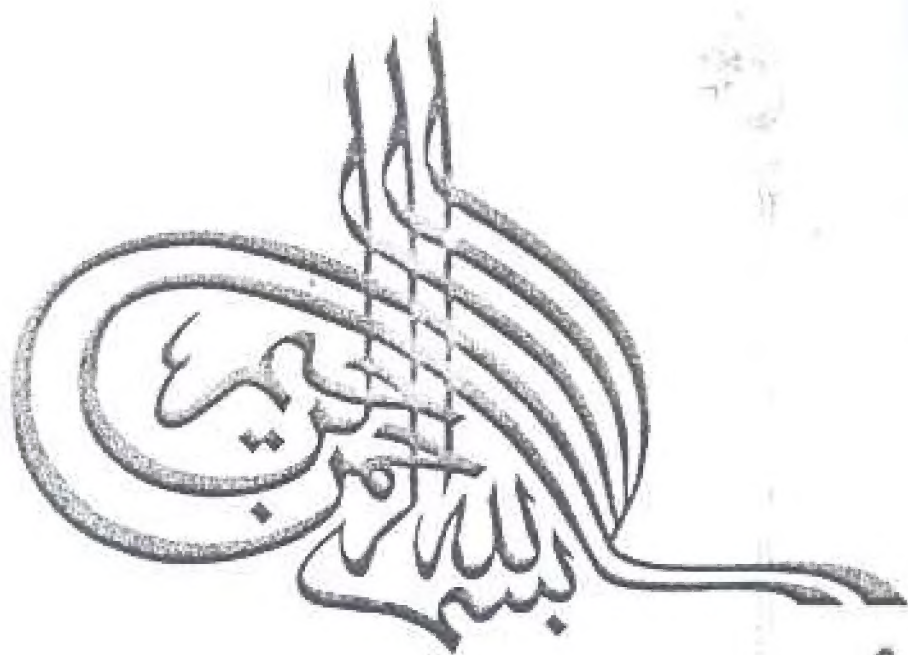
الدكتور/ محمود حمدي زقزوق

وزير الأوقاف

ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الدكتور/ عبدالصبور مرزوق

نائب رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية





كلمات

* يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَنُفِثَ اللَّهُ مَسَافِكُمْ كَثِيرَةً كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنْ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ (١) .

* ويقول الإمام القرطبي (٦٧١هـ / ١٢٧٣م) في تفسير هذه الآية الكريمة : " إن في هذا التوجيه الإلهي من الفقه باب عظيم ، وهو أن الأحكام تُنَاط بالمظان والظواهر ، لا على القطع وإطلاع السرائر ، فالله لم يجعل لعباده غير الحكم بالظاهر " (٢) .

* وعن أسامة بن زيد - رضى الله عنه - قال : " بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فصَبَحْنَا الخُرُفَات (مكان) من جهينة ، فأدركت رجلاً ، فقال : لا إله إلا الله ، فطعنته . فوقع في نفسى من ذلك ، فذكرته للنبي ﷺ فقال : " أقال لا إله إلا الله ، وقتلته " ؟ !

قال ، قلت : يا رسول الله ، إنما قالها خوفاً من السلاح .

(١) النساء : ٩٤ .

(٢) (الجامع لأحكام القرآن) ج ٥ ، ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، طبعة دار الكتب المصرية .

قال ﷺ : [أفلا شَفَقْت عن قلبه لتعلم أقالها أم لا ؟ .. فما زال يكررها حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ] (١) .

* وفي شرح هذا الحديث ، يقول الإمام النووي (٦٣١ ، ٦٧٦ هـ — / ١٢٣٣ ، ١٢٧٧ م) : " إنما كُلفت بالعمل بالظاهر وما ينطق به اللسان وأما القلب فليس لك طريق إلى معرفة ما فيه " .

* ويقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (٤٥٠ ، ٥٠٥ هـ — / ١٠٥٨ ، ١١١١ م) : " إنه لا يسارع إلى التكفير إلا الجيلة .. وينبغي الاحتراز من التكفير ما وجد الإنسان إلى ذلك سبيلا ، فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة ، المصرحين بقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، خطأ والخطأ في ترك ألف كافر أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم " (٢) .

* ويقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ ، ١٣٢٣ هـ — / ١٨٤٩ ، ١٩٠٥ م) : " إن الله لم يجعل للخليفة .. ولا القاضي .. ولا للمفتي .. ولا لشيخ الإسلام أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام .. ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعى حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه ، أو ينازعه طريق نظره ..

(١) رواه مسلم ، وأبو داود ، وابن ماجه ، والإمام أحمد .

(٢) (الاقتصاد في الاعتقاد) ، ص ١٤٣ ، طبعة مكتبة صبيح ، ضمن مجموعة .

القاهرة بدون تاريخ .

فليس في الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة ،
والدعوة إلى الخير والتفكير عن الشر ، وهي سلطة خولها الله لأدنى
المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم ، كما خولها لأعلاهم يتناول بها من
أدناهم ..

وليس لمسلم ، مهما علا كعبه في الإسلام ، على آخر ، مهما
انحطت منزلته فيه ، إلا حق النصيحة والإرشاد ..

ولقد اشتهر بين المسلمين وعُرف من قواعد أحكام دينهم أنه إذا
صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ، ويحتمل الإيمان من
وجه واحد ، حُمل على الإيمان ، ولا يجوز حمله على الكفر .. (١) .

هكذا أعلن الإسلام — من خلال " البلاغ القرآني " .. و " البيان
النبوي " للبلاغ القرآني .. ومن خلال الفكر الإسلامي — ضرورة صيانة
الإيمان عن " التكفير العيئي " و " عبث التكفيريين " ! .

المؤلف

(١) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ج ٣ ، ص ٢٨٣ — ٢٨٩ ، دراسة
وتحقيق : د. محمد عمارة ، طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

تمهيد

على النطاق العالمي . وفي مختلف القارات ، تتوجه الأمم والشعوب إلى التقارب والتساند والتضامن والاتحاد .. وذلك انطلاقاً من الضرورات الحياتية لهذه الأمم والشعوب ، واستجابة للحاجات المادية التي تستلزم تكامل الإمكانيات والثروات ومشروعات التنمية .. ولمواجهة التحديات - الداخلية والخارجية - التي تواجه هذه الأمم والشعوب ، إن في مجالات " الأمن " أو في مجالات " الاقتصاد " ..

وإذا كانت هذه الضرورات والحاجيات المادية والدينية " هي التي تدفع هذه الأمم والشعوب إلى التقارب والتضامن والتساند والاتحاد ، رغم ما بينها من اختلافات وتباينات دينية وثقافية ولغوية وقومية .. بل ورغم ما في تاريخها - البعيد والقريب - من حروب وصراعات .. فإن الحال مع شعوب الأمة الإسلامية - في ضوء هذه " الظاهرة العالمية " يدعو إلى الأسى والاستغراب ! ..

* فالمسلمون أمة واحدة .. قرر ذلك قرآنهم الكريم ، الذي هو البلاغ الإلهي الذي يحفظونه ، ويقدمونه .. وهم يتلونه في صلواتهم أثناء الليل وأطراف النهار يقول الله سبحانه وتعالى : إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً

وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿١١﴾ . ﴿وَإِنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ (١٢) .

ووحدة هذه الأمة ، وما تنمُّرها من ألفة وانتلاف هي - إرادة إلهية -
و " صناعة ربانية " .. وليست مجرد " نزوع بشري دنيوي " .. ﴿وَإِنْ
يَرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنْ حَسِبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بَتْصَرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ *
وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ
وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١٣) .

* وتاريخ هذه الأمة الإسلامية شاهد صدق ، يعلن بكل ألسنة الحال
والمقال أن وحدتها هي التي جعلتها - حتى عندما كانت قلة قليلة -
تزيّل " القوى العظمى " التي قهرت الشرق ونهبت أكثر من عشرة قرون
- قوى الفرس والروم - وتفتّح في ثمانين عامًا أوسع مما فتح الرومان
في ثمانية قرون ! .. وتبنى الحضارة الوسطية المتوازنة التي أنارت
الدنيا وعلمت الشعوب ، وجعلت المسلمين العالم الأول على ظهر هذا
الكوكب لأكثر من عشرة قرون ! .

* وهذه الوحدة ، هي ذاتها التي مكنت هذه الأمة من قهر التتار -
الذين دوخوا الشعوب وأبادوا العمران - وقهروا الصليبيين الذين مثلت

(١) الأنبياء : ٩٢ .

(٢) المؤمنون : ٥٢ .

(٣) الأنفال : ٦٣، ٦٢ .

حملاتهم التدميرية الاستيطانية أولى الحروب العالمية انشأ استمرت
قرنين من الزمان (٤٨٩ - ٦٩٠ هـ / ١٠٩٦ - ١٢٩١ م) ..

* ومع الفريضة الإلبيه .. ومع شهادة التاريخ .. فإن واقع هذه الأمة
الإسلامية يصرخ بأعلى الأصوات ..

إن تمزق هذه الأمة ، وغيبة التضامن والتساند والتكامل والاتحاد بين
شعوبها وأوطانها هو الذي مكن ويمكن منها الأعداء وشذات الأفاق !
فثرواتها منهوبة .. وأرضها ترواح تحت نير القواعد العسكرية
الأجنبية .. وبحارها ومحيطاتها تسرح وتمرح فيها الأساطيل السعادية ..

• • •

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد علمنا في قرآنه الكريم أن " التداول
سنة من سنن الله في الاجتماع الإنساني " ، وعبر تاريخ الأمم والحضارات
﴿ .. وتلك الأيام تداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم
شهداء والله لا يحب الظالمين * وليمحص الله الذين آمنوا ويصحق
الكافرين ﴾ ^(١) . ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا
أمثالكم ﴾ ^(٢) .

وإذا كان رسول الله ﷺ قد علمنا أن هذا " التداول " هو الذي يجعل
خط سير التاريخ يأخذ شكل " الدورات " .. فكما يتم التداول بين الليل
والنهار ، كذلك يتم التداول بين العدل والجور .. وبين الصعود والهبوط ..

(١) آل عمران : ١٤٠ - ١٤١ .

(٢) صافات : ٣٨ .

وبين التقدم والتخلف .. وبين النهوض والانحطاط .. وصلى رسول الله ﷺ إذ يقول : [لا يلبث الجور بعدى إلا قليلاً حتى يطلع ، فكُلُّما طلع من الجور شئ ذهب من العدل مثله حتى يولد فى الجور من لا يعرف غيره . ثم يأتى الله تبارك وتعالى بالعدل ، فكُلُّما جاء من العدل شئ ذهب من الجور مثله ، حتى يولد فى العدل من لا يعرف غيره] (١) .

إذا كان الحال كذلك .. وإذا كان الرسول ﷺ قد علمنا أن الخير فى وفى أمضى إلى يوم القيامة .. وأن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة [لا تجتمع أمتى على ضلالة] (٢) .

فإن على أولى العزم والهمة من العلماء والفكرين المخلصين على شعور الإسلام أن يحافظوا على سبيل توحيد أمة الإسلام ، لتكامل أوطان دار الإسلام ، ولتتحرر أوطاننا ومباهانا وثرواتنا ومقدراتنا وحضارتنا ، ولينتولى امرؤنا من ينشون إلى هويتنا ، ويمنحرون كامل الولاء لهذا الدين ، الذى جمع المؤمنين به على هذه الجوامع الخمسة :

- ١- وحدة العقيدة .
- ٢- وحدة الشريعة .
- ٣- وحدة الحضارة .
- ٤- وحدة الأمة .
- ٥- وحدة دار الإسلام .

(١) رواه الإمام أحمد

(٢) رواه الداريمى

وإذا كانت " التعددية " وكان التمايز والاختلاف - في إطار وحدة هذه الجوامع الخمسة - هي " نعمة " من نعم الله التي جاء بها الإسلام .. فإن " النعمة " إنما تتجسد في الخلاف الذي يجعل بأس المسلمين بينهم شديدا .. وفي مقدمة أسباب هذه " النعمة " " نزعة التكفير " التي تقسم وحدة الأمة ، وتقسم العرى والشائج التي ألف بها الإسلام بين قلوب المسلمين ..

لقد رسم القرآن الكريم صورة هذه الأمة ، كما أرادها الله سبحانه وتعالى عندما قال : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) (١) .

أما إذا شاعت " نزعة التكفير " بين مذاهب الأمة وفرقها وتياراتها ، فإن الباب سيفتح واسعا أمام الاختراقات المعادية التي شهدها كثيرا من الأيام في العديد من بلاد الإسلام .. بل سيصبح فرقاء من هذه الأمة أعداء على أمتهم رحماء على أعدائها .. ومتحالفين مع هؤلاء الأعداء !! . إن " سيفة " الأمة الإسلامية تتلوح فيها الأمواج العاصفة في محيط عالمي أعنت القزوينية والقارونية الغربية فيه الحزب الصليبي على الإسلام وأمنه وحضارته وعالمه ..

ولن مذاهب هذه الأمة الإسلامية هي " الألواح " المكونة لهذه " السفينة " .. فهي لبذات عقل الأمة ووجدانها ، المحركة لعامتها وجمهورها ..

(١) الفتح : ٢٩

وصدق رسول الله ﷺ إذ يعلمنا منها جالحفاظ على " سفينة الأمة " فيقول [مثل القانم على حدود الله والمدن فيها كمثل قوم استهموا في سفينة في البحر ، فأصاب بعضهم أسفلها وأصاب بعضهم أعلاها . فكان الذين في أسفلها يصعدون فيستقون الماء فيصبون على الذين في أعلاها فقال الذين في أعلاها : لا تدعكم تصعدون فتؤذوننا ، فقال الذين في أسفلها : فإتينا ننجيها من أسفلها فتستقي . قال : [أي الرسول ﷺ] : فإن أخذوا على أيديهم فمنعوهم نجوا جميعا ، وإن تركوهم غرقوا جميعا] (١) .

وهكذا يصنع " التكفير " عندما يخرف وحدة الأمة ، ويفكك مكونات " سفينتها " بينما تتناوشها الأمواج والتم حسف في محيط قد أعلنت قسواء الكبرى الحرب الضروس على الإسلام والمسلمين .. وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا (٢) .

لذلك .. وتعالجة هذه النزعة التفسيرية — نزعة التكفير لأهل القبلة — وتواجهة هذه الفتنة التي كانت قابضة في بطون بعض الكتب المذهبية .. وفي عقول بعض الذين يرتزقون من التعصب المذهبي — والتي أشاع الإعلام المعاصر بثورة الاتصالات — فاحشيتها بين العامة والجمهور .

(١) رواه البخاري والترمذي والإمام أحمد .

(٢) الكهف : ٧٩ .

ولمعالجة هذه " النزعة " .. وهذه الفتنة " يجب أن يتداعى العلماء
والمفكرون المرابطون على تغور وحدة الإسلام وأمنته وحضارته ..
وفي سبيل ذلك يصدر هذا الكتاب ، الذى نسأل الله سبحانه
وتعالى : أن يتقبله خالصا لوجهه .. وأن ينفع به .. إتيه سبحانه أفضل
مستول وأكرم مجيب ..

حتى يكون التقريب حقيقياً

في الحديث عن التقريب بين المذاهب الإسلامية ، هناك خلط بين المفاهيم المرادة من وراء المصطلحات التي يستخدمها الباحثون في هذا الميدان .. "فالتقريب" بين المذاهب غير "التوحيد" للمذاهب .. وكلاهما متميز عن "احتضان" جميع المذاهب والاستفادة من الملائم في أحكامها واجتهادات مجتهديهـا .

ثم إن "المذاهب" قد يراد بها "المذاهب الفقهية" .. وقد يراد بها "المذاهب الكلامية" لذلك ، لابد من البدء بتحديد وتحرير مضامين ومفاهيم كل مصطلح من هذه المصطلحات ..

* "فالتقريب" : هو الانطلاق من تمايز المذاهب المتعددة والمختلفة ، والحفاظ على تمايزها واختلافها ، مع العول عن نقي مذهب للمذاهب الأخرى ، بالتعصب لمذهب واحد ، ورفض مسا عداه .. فهو - التقريب - تعاضل بين المذاهب المختلفة ، مع اكتشاف الإطار العام الجامع لها ، ومناطق الاتفاق بينها ، وتحديد مناطق التمايز والاختلاف .

* أما "التوحيد" بين المذاهب : فإنه يعني دمجها جميعاً في مذهب واحد ، ونفي قاعدة التعدد والتمايز والاختلاف ..

"وبين هذين المصطلحين يأتي "الاحتضان" والاستفادة من المذاهب المختلفة والمتمايزة ، باعتبارها اجتهادات إسلامية في إطار علم

واحد وحضارة واحدة ودين واحد ، والنظر إلى الأحكام النسي أثرتها
 الاجتهادات المذهبية المختلفة باعتبارها الثرات الواحد للأمة الواحدة ، ومن
 ثم الاستفادة بالملامح منها ، الذي يلبي حاجات تحقيق المصالح
 والضرورات المتجددة بحكم تمايز الزمان والمكان وتنوع العادات
 والتقاليد والأعراف .. أى توسيع دائرة الترجيح بين الأحكام والاجتهادات
 من نطاق المذهب الواحد إلى جملة المذاهب كلها ومفهوم " الاحتضان "
 هذا من الممكن أن يكون ثمرة من ثمرات " التقريب " ..

* أما مصطلح " المذاهب " ، فإنه يطلق على المذاهب الفقهية ، التى
 هى علم الفروع واجتهادات الفقهاء فى إطار الشريعة الإسلامية الواحدة
 التى هى وضع إلهى ثابت غير الزمان والمكان .. وقد يطلق هذا المصطلح
 " المذاهب " على المذاهب الكلامية ، أى التصورات والاجتهادات التى
 أبدعها علماء أصول الدين فى إطار العقائد الإسلامية ، وخاصة
 " الكونية " و " صفات " الذات الإلهية " .. و " النبوات والرسالات "
 وما يتعلق بها من المعجزات .. و " فلسفة العلاقة بين الحق والخلق " ،
 وما يتعلق بها من مكانة الإنسان فى الكون ، وأفعال هذا الإنسان .. إلخ ..
 هذا عن ضبط مفاهيم ومضامين مصطلحات هذا المبحث من
 مباحث الفكر الإسلامى .

أما عن التاريخ الحديث للجهود والدعوات التى بذلت وقامت لتقريب
 بين المذاهب الفقهية الإسلامية بهدف الخروج من التعصب لواحد منها ضد
 ما عداه ، والاستفادة من كل الاجتهادات فيها ، لتلبية احتياجات التشريع

للمستجدات العصرية ، فحل دعوة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٥ هـ - ١٣٢٣ هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م) فى التقرير الذى كتبه لإصلاح القضاء الشرعى - أن تكون أبرز هذه الدعوات فى عصرنا الحديث . لاحتضان كل مذاهب الفقه الإسلامى ، والاستفادة من اجتهاداتها فى القضاء والتقنين الحديث لفقه الشريعة الإسلامية .. فلفت كانت الدولة العثمانية (٦٦٩ - ١٣٤٢ هـ / ١٢٧٠ - ١٩٢٢ م) تلزم المذهب الحنفى وحده . وبفقيه وحده يحكم القضاء ويفتى المفتون فى ولاياتها ، رغم تذهب الناس فيها بالمذاهب السنية الأربعة : - الحنفى .. والمالكي .. والشافعى .. والحنبلية .. وللمذهب الحنفى وحده تم التقنين فى " مجلة الأحكام العدلية " سنة ١٢٨٦ هـ ، سنة ١٨٦٩ م .. فلما درس الإمام محمد عبده حال القضاء الشرعى بمصر ، دعا فى التقرير الذى كتبه - فى نوفمبر سنة ١٨٩٩ م - إلى إصلاح حال هذا القضاء وفقهه .. ودعا إلى احتضان كل المذاهب الفقهية والاستفادة من اجتهادات جميع مجتهداتها ، لما فى ذلك من فتح باب الاجتهاد بالترجيح بين الأحكام جميعها ، والتيسير على الناس ، وتلبية حاجات المستجدات (١) .

ولقد كانت حركة التقنين لفقه الإسلامى بمصر ، فى مقدمة الحركات التى وضعت دعوة الإمام محمد عبده فى الممارسة والتطبيق .. وفى التعديلات التى أدخلت على بعض مواد قوانين الأسرة - الأحوال الشخصية - تمت الاستفادة من المذاهب الفقهية المختلفة ، بما فى ذلك

(١) (الأسفل الكسالة) ج ٢ ، ص ٢٠٩ - ٢٨٨ .

المذهب الجعفري - الشيعة الإثني عشرية - والمذهب الزيدي - الشيعة
الزيدية ..

ولما قامت مصر بإصدار موسوعة الفقه الإسلامي - موسوعة جمال
عبد الناصر - اعتمدت كل المذاهب الفقهية الموثقة مصادر ها ، واحتضنت
أحكامها واجتهادات مجتهديهها جميعاً - وهي المذاهب السنية الأربعة .. مع
المذهب الجعفري ، والمذهب الزيدي ، والمذهب الإباضي ، والمذهب
الظاهرى .. فكانت ' للفقه المصرى ' - إذا جاز التعبير - الزيادة فى
إنهاج هذا الطريق ، الذى لا يكتفى ، فقط ، " بالتقريب " بيسن المذاهب
الفقهية ، أى رفض التعصب لمذهب واحد ضد ما عداه . وإساً تجاوز
' الموقف المصرى ' هذا " التقريب " إلى " احتضان " كل المذاهب ،
والعمل على الاستفادة من الملائم الملبى لاحتياجات الأمة ومستجدات
العصر من اجتهادات المذاهب الفقهية جميعها ..

وفى أربعينيات القرن العشرين ، قامت فى مصر " جماعة التقريب
بين المذاهب " مركزة جهودها على مذاهب السنة والشيعة الإمامية بوجه
خاص ..

ونقد رأس هذه الجماعة الزعيم المصلح محمد على علوية باتاً
(١٢٩٢ - ١٣٧٥هـ / ١٨٧٥ - ١٩٥٦م) .. وكان فى مقدمة
مؤسسيها والعاملين فى ميدان جهودها الفقهية والفكرية الأئمة والعلماء
الأعلام : الشيخ عبد المجيد سليم (١٢٩٩ - ١٣٧٤هـ) والشيخ محمد
مصطفى المراعى (١٢٩٨ - ١٣٦٤هـ / ١٨٨١ - ١٩٤٥م) والشيخ

مصطفى عبيد الرازي (١٣٠٢ - ١٣٦٦ هـ / ١٨٨٥ - ١٩٤٦ م)
 والشيخ محمود شلتوت (١٣١٠ - ١٣٨٣ هـ / ١٨٩٣ - ١٩٦٣ م)
 والشيخ محمد المدني (١٣٢٥ - ١٣٨٨ هـ / ١٩٠٧ - ١٩٦٨ م)
 والشيخ علي الخفيف (١٣٠٨ - ١٣٩٨ هـ / ١٨٩١ - ١٩٧٨ م)
 والشيخ عبد العزيز عيسى (١٣٢٧ - ١٤١٥ هـ / ١٩٠٩ - ١٩٩٤ م)
 والشيخ حسن البنا (١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ / ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م) والشيخ
 سيد سابق .. وغيرهم من أئمة علماء السنة .

كما صبت هذه اللجنة - في إطار " دار التقريب " - كوكبة من
 كبار علماء الشيعة الاثني عشرية .. من مثل آية الله أفامصين البروجردي
 .. والسيد محمد تقى الدين القمي - الذي تولى الأمانة العامة للجماعة -
 والسيد محمد الحسيني آل كاشف الغطاء ، والسيد شرف الدين الموسوي ..
 والسيد محمد جواد منبغية ، والسيد صدر الدين شرف الدين .. وغيرهم .
 وكانت مجلة " رسالة الإسلام " لسان حال هذه الجماعة ، من أبرز
 السابر الفكرية التي تجسدت فيها الجهود التي بذلت في هذا اللون من
 التقريب بين المذاهب الإسلامية .. وفي إزالة التبهات والعقبات من ميادين
 العلاقة بين السنة والشيعة على وجه الخصوص ..

كذلك كانت جهود الشيخ محمود شلتوت من أبرز ما تخصصت عنه
 اجتهادات هذا اللون من التقريب بين المذاهب الفقهية .. فلقد كتب عن
 مقاصد هذه الدعوة ، وجهود هذه الجماعة فقال :

" إن دعوة التقريب هي دعوة التوحيد والوحدة ، هي دعوة السلام
 والإسلام .. كنت أود أن أستطيع تصوير فكرة الحرية المذهبية الصحيحة

المستقيمة على نهج الإسلام ، والتي كان عليها الأئمة الأعلام في تاريخنا
الفقهي ، أولئك الذين كانوا يترفعون عن العصبية الضيقة ، ويربأون
بدين الله وشريعته عن الجمود والخمول ، فلا يزعم أحدهم أنه أتى بالحق
الذي لا ريب فيه ، وأن على سائر الناس أن يتبعوه ، ولكن يقول : هذا
مذهبي ، وما وصل إليه جهدي وعلمي ، ولست أيسح لأحد تقليدي
واتباعي دون أن ينظر ويعلم من أين قلت ما قلت ، فإن الدلول إذا استقام
فهو عمدتي ، والحديث إذا صح فهو مذهبي .

ولقد آمنت بفكرة التقريب كمنهج قويمة ، وأسهمت منذ أول يوم
في جماعتها ، وفي وجوه نشاط دارها بأمور كثيرة ، ثم تنهيا لى بعد
ذلك . وقد عهد إلى بعنصب ستيخة الأزهر ، أن أصدرت فتاوى في جوائر
التعب على المذاهب الإسلامية الثابتة الأصول ، المعروفة المصادر ،
المتبعة لسبيل المؤمنين ، ومنها مذهب الشيعة الإمامية الإثنا عشرية ..
وقرأت بهذا الفتوى عيون المؤمنين المختصين الذين لا هدف لهم
إلا الحق والألفة ومصلحة الأمة . وظلت تتوارد الأسئـلة والمشاورات
والمجادلات في شأنها وأنا مؤمن بصحتها ، ثابت على رتبها ، وأؤيدها
في الحين بعد الحين فيما أبعت به من رسائل إلى المتوضحين . أو أرد به
على شبه المعترضين ، وفيما أنشئ من مقال ينشر أو حديث يسدع أو
بيان أدعو به إلى الوحدة والتماسك والاتفاق حول أصول الإسلام .
ونسيان الضغائن والأحقاد ، حتى أصبحت - والحمد لله - حقيقة مقررة
تجرى بين المسلمين مجرى القضايا المسلمة ، بعد أن كان المرجفون في

مختلف عهود الضعف الفكري والخلاف الطائفي والنزاع السياسي ،
 يشيرون في موضعها الشكوك والأوهام بالباطل ، وهذا هو ذا الأثر
 الشريف ينزل على حكم هذا المبدأ ، مبدأ التقريب بين أرباب المذاهب
 المختلفة ، فيقرر دراسة فقه المذاهب الإسلامية سنيها وشيعتها ،
 دراسة تعتمد على الدليل والبرهان ، وتخلو من التعصب لفلان
 وفلان .^(١)

لقد سئل الشيخ محمود شلتوت - وهو الإمام الأكبر شيخ الأزهر :
 " إن بعض الناس يرى أنه يجب على المسلم لكي تقع
 عبادته ومعاملاته على وجه صحيح ، أن يقلد أحد المذاهب الأربعة
 المعروفة ، وليس من بينها مذهب الشيعة ، فهل توافقون فضيلتكم على هذا
 الرأي على إطلاقه فتمنعون تقليد مذهب الشيعة الإثنا عشرية مثلاً ؟ " .
 فكان جواب الشيخ شلتوت على هذا السؤال :

" إن الإسلام لا يوجب على أحد اتباع مذهب معين ، بل نقول : إن
 لكل مسلم الحق في أن يقلد يادئ ذي بدء أي مذهب من المذاهب المنقولة
 نقلاً صحيحاً ، والمدونة أحكامها في كتبها الخاصة ، ولمن قلده مذهباً من
 هذه المذاهب أن ينتقل إلى غيره - أي مذهب كان - ولا حرج عليه في
 شيء .

(١) على عبد العظيم (شعبة الأزهر) ج ٢ ، ص ١٨٧ ، ١٨٨ . طبعة القاهرة سنة
 ١٣٩٩ هـ ، سنة ١٩٧٩ م .

إن مذهب الجعفرية ، المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الإثنا عشرية ، مذهب يجوز التعبد به شرعا كسائر مذاهب أهل السنة ، فينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك ، وأن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة ، فما كان دين الله وما كانت شريعته تابعة لمذهب أو مقصورة على مذهب ، فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى ، يجوز — لمن ليس أهلاً للنظر والاجتهاد — تقليدهم والعمل بما يقررونه في فقههم . ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات (١) .

ذلك هو نص فتوى الشيخ شلتوت في التقريب بين المذاهب الفقهية .. وفي جواز التعبد والتعامل وفق أحكامها جميعاً دون تعصب لمذهب ضد ما عداه .. وجواز التعبد والتعامل — من قبل أهل السنة — وفق فقه المذهب الجعفرى للشيعة الإمامية الإثنا عشرية على وجه التحديد .. ورغم أن هذه الفتوى قد وجدت صدى عظيمًا وواسعًا ومستمرًا في الدوائر الشيعية ، ورفعت من مقام الشيخ شلتوت في هذه الدوائر ، حتى لقد تم الاحتفال به وبأية الله البروجردى — في طهران سنة ٢٠٠١ م . ولقد ترجم علماء الشيعة فتواه هذه إلى مختلف اللغات .. إلا أنه لم تصدر فتوى مناظرة لها من أى مرجع من مراجع الشيعة ، ولم يفت واحد من هؤلاء العلماء الأعلام بجواز تعبد وتعامل المسلم الشيعى وفق فقه المذاهب الفقهية السنية ، حتى يكون التقريب متبادلاً بين الأطراف المتعددة ، وليس من طرف واحد لحساب الطرف الثانى ! ..

(١) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٨٨ .

بل إن دستور الجمهورية الإسلامية الإيرانية الصادر بعد الثورة الإسلامية - قد ذهب إلى الحد الذي جعل المذهب الجعفري وحده هو مذهب الدولة ، ونص على أن المادة التي تقرر ذلك لا يجوز تغييرها فيما يطرأ على مواد هذا الدستور من تغييرات ! .. الأمر الذي يجعل قضية التقريب بين المذاهب الفقهية قائمة على ساق واحدة ، ومن طرف واحد حتى كتابة هذه السطور ! ..

وإذا كانت لنا من ملاحظات على هذه الجهود العلمية العظيمة التي بذلتها جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية ، والتي أثمرت ثمرات طيبة في ميدان التقريب بين السنة والشيعة - وهي الجهود التي يحاول مواصلة قدر الإمكان .. وعلى نحو من الأنحاء "المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب" - بطهران - فإن هذه الملاحظات يمكن إجمالها في هذه النقاط :

أولاً : إن توجيه جهود التقريب بين المذاهب الإسلامية إلى التقريب بين المذاهب الفقهية ، هو جهاد في غير الميدان الحقيقي الأولي بالجهاد .. أو - على أحسن الفروض - هو جهاد في الميدان الأسفل ، الذي لا يمثل المشكلة الحقيقية في الخلافات بين المذاهب الإسلامية .. وبين السنة والشيعة على وجه التحديد - فالفقه هو علم الفروع .. وكلما زاد الاجتهاد والتجديد في الفقه الإسلامي كلما تمايزت الاجتهادات في الأحكام الفقهية .. ففتح الأفاق أمام تمايزات الاجتهادات هو الذي يحرك العقل الإسلامي المجتهد ،

وليس التقريب — فضلاً عن التوحيد لهذه الاجتهادات — فقط نريد احتضان
الاجتهادات المذهبية والفقهية المتنوعة ، والاستفادة بالملامح من أحكامها
لتفسير على الناس ، ولمواكبة المستجدات ..

وثانياً : إن الفقه هو علم الفروع .. وتمايز الاجتهاد فيه واختلاف
المجتهدين في أحكامه لم يكن في يوم من الأيام يمثل مشكلة لوحدة
الأمة ، بل كان مصدراً غنياً وثراءاً للعقل الفقهي والواقع الإسلامي على
السواء .. وفي الفقه كان الأئمة والعلماء ، والمختلفون في المذاهب ، يتقلمون
الواحد منهم على من يخالفه في المذهب .. بل ورأينا في تراثنا من العلماء
الأعلام من يجمع المذاهب المتعددة في فقيهه وعطائه ، فيفتي وفق مذهب ،
ويقضي وفق مذهب ثان ، ويدرس كل المذاهب لطلاب علمه ومريديه ! .
فاختلاف المذاهب الفقهية هو ظاهرة صحية في الفكر الإسلامي ،
وهو مصدر من مصادر انغنى والثراء لهذا الفقه ، ولا يمثل أية مشكلة
لوحدة أمة الإسلام .. ومن ثم ، فليس هو الميدان الحقيقي والأولى للجهاد
الفكري في التقريب بين مذاهب المسلمين ..

وثالثاً : إن الميدان الذي كان ولا يزال يمثل مشكلة لوحدة الأمة
— التي هي فريضة إلهية وتكليف قرآني — هو ميدان بعض الاجتهادات
المذهبية في المذاهب الكلامية الإسلامية .. وعلى وجه التحديد أحكام
" التكفير " و " التفسير " التي نجدتها في تراث هذه المذاهب والتي
ارتبطت بقضية الإمامة على سبيل الحصر والتحديد ..

إن اختلاف مذاهب الفقه — السنية والشيعة — حول " نكاح المتعة " مثلا ، لا يمثل مشكلة تقصم وحدة الأمة الإسلامية .. لكن الاجتهادات التي تكفر الصحابة الذين أخرجوا خلافة علي بن أبي طالب هي التي تهدد وحدة الأمة منذ عصر الخلافة وحتى هذه اللحظات ..

ومثلها الاجتهادات التي تكفر الشيعة في بعض كتب التراث السني ، كما هو الحال عند شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١ — ٧٢٨ هـ / ١٢٦٣ — ١٣٢٨ م) وبعض الأئمة " السلفيين " ويضاف إلى هذه المسائل بعض الآراء التي توهم التجسيد والتشبيه للذات الإلهية .. وبعض المواقف الحادة في ميدان التصوف والصوفييين .

فالتقريب بين المذاهب ، والذي يمثل الميدان الحقيقي للجهاد الفكري المطلوب ، هو الذي يوحد الأمة في الأصول والثوابت . وفي أمهات العقائد والمسائل الفكرية .. وهذا هو ميدان علم الكلام .. والجهاد التقريبي — الغائب والمطلوب — هو نزع " الألبام الفكرية — التكفيرية " التي تقصم وحدة الأمة بالتكفير لفريق من الفرقاء أو مذهب من المذاهب ، لأن التكفير هو نفي الآخر ، يقصم وحدة الأمة .. وهو خطر لا علاقة له بالفقه ، الذي هو علم الفروع ، ولا بالاجتهادات والاختلافات الفقهية ، التي هي ظاهرة صحية ، تنمّر الغنى والثراء في الأحكام ، والمسير والسعة للأمة كلها في تطبيق هذه الأحكام ..

" وإذا كانت هذه ' الألبام الفكرية — التكفيرية ' ، التي تتغذى بها وعليها عقول قطاعات من العلماء في بعض الحوزات العلمية ، وفي بعض

الدوائر الفكرية السنية .. كما تتغذى عليها نزعات التعصب عند العامة ..
إذا كانت هذه " الألغام " قد غدت راسخة ، بل و " متكلسة " .. فإن
الموقف الممكن والعلى إزاءها يمكن تصوره فيما يلي :

١- تحديد نطاق هذه " الألغام الفكرية التكفيرية " وأغلبها - لحسن
الحظ - تابع من نقل القضايا الخلافية من نطاق " الفروع " إلى نطاق
" أصول الاعتقاد " ، وتحويلها - من ثم - إلى عوامل " نفي .. وتكفير "
للمخالفين ..

٢- اعتماد منهاج وسنة التدرج في تطبيق خطة إزالة هذه "
الألغام الفكرية - التكفيرية " من الكتب التراثية ، وخاصة الذى يدرس
منها فى الحوزات العلمية والجامعات الإسلامية ، وذلك بحذفها من
الطبعات الجديدة لكتب التراث هذه .. وفق المنهاج المتعارف عليه فى "
تهذيب " كتب التراث ..

٣- الاتفاق : فى إطار حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية على
منع تدريس هذه " الاجتهادات التكفيرية " فى الحوزات والجامعات
الإسلامية التى تكون عقول العلماء فى مختلف بلاد الإسلام ولنا فى منهاج
الأزهر الشريف النموذج والقذوة فى هذا الميدان ، فهو يحتضن كل مذاهب
الأمة - الفقهية والكلامية - لفظها وخلفها على حد سواء ، مع استبعاد
التكفير والتفسيق لأى مذهب من المذاهب أو فرقة من الفرق الإسلامية ،
حفاظاً على وحدة الأمة ، التى هى قريضة إلهية ، تعلو فوق اجتهادات
المجتهدين ومذاهب المتمذهبين ..

وصدق الله العظيم في قوله : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّةُ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رِبِّكُمْ فَاعْبُدُون ۖ ﴾ (١) .

ذلك هو الميدان الحقيقي للجهاد الفكري في التقريب بين المذاهب الإسلامية .. إنه علم الكلام .. علم الأصول في الاعتقاد .. وليس علم الفقه والمذاهب الفقهية ، التي تتخصص في الفروع ، واختلافاتها رحمة واسعة ولا تقسم الود بين المسلمين ..

(١) الأنبياء : ٩٢ .

مقال فى التحذير من التكفير

لأهل السنة والجماعة - الذين يمثلون ٩٠% من المسلمين - موقف واضح وحاسم وثابت فى رفض التكفير لمن يشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ما دام قائما بحقوق هذه الشهادة ، التى هى شعار الإسلام .. العاصمة للدماء والأموال والحقوق .

وعن هذا الموقف الواضح والحاسم والثابت يعبر حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ، فيقول : " واعلم أن حقيقة الكفر والإيمان وحدتهما . والحق والضلال وسرهما . لا ينجلى للقلوب المدنسة بطيب السال والنجاء وحبهما . بل إنما ينكشف ذلك للقلوب طهرت عن وسخ أو ضار الدنيا أولا ، ثم صقلت بالرياضة الكاملة ثانياً ، ثم نورت بالذكر الصافى ثالثاً ، ثم غذيت بالفكر الصائب رابعاً ، ثم زينت بملازمة حدود الشرع خامساً ، حتى فاض عليها النور من مشكاة النبوة ، وصارت كأنها مرآة مجلوة . وصار مصباح الإيمان فى زجاجة قلبه مشرق الأنوار ، يكاد زيتہ يضىء ولو لم تمسه نار .

وأنى تتجلى أسرار الملكوت لقوم إلههم هواهم ، ومعبودهم سلاطينهم ، وقبائلهم دراهمهم ودنانيرهم ، وشريعتهم رعوتهم . وإرادتهم جاههم وشهواتهم . وعبادتهم خدمتهم أغنياءهم . وذكرهم

وساوسهم ، وكفرهم سوا سهم ، وفكرهم استنباط الحيل لما تقتضيه
حشمتهم ؟ .

فهؤلاء من أين تتميز لهم ظلمة الكفر من ضياء الإيمان ؟ أبا السهام
إلهي ولم يفرغوا القنوب من كدورات الدنيا لقبولها ؟ أم بكمال علمي ،
وإنما بضاعتهم في العلم مسألة النجاسة وماء الزعفران وأمثالهما ؟
هيهات هيهات : هذا المطلب أنفس وأعز من أن يترك بالعلمي ، أو
ينال بالهوي ، فاشتغل أنت بشألك ، ولا تضع فيهم بقية زمانك
﴿ فاعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾ ذلك مبلغهم
من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن
اهتدى ﴿ (١) .

.. ولعلك إن أنصفت علمت أن من جعل الحق وقفا على واحد من
النظار يعينه فهو إلى الكفر والتناقض أقرب .

أما الكفر ، فلائه نزله منزلة النبي المعصوم من الزلل ، الذي
لا يثبت الإيمان إلا بموافقته ، ولا يلزم الكفر إلا بمخالفته .

وأما التناقض ، فهو أن كل واحد من النظائر يوجب النظر ، وأن
لا ترى في نظرك إلا ما رأيت ، وكل ما رأيت حجة ، وأي فرق بين من

حجة

(١) رسالة الإسلام ، أبو حامد الغزالي ، (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) ، ص ٢٠٠

طبعة القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ ، سنة ١٩٠٧ م . والأيقان من سورة النجم : ٢٠ ، ٢٩ .

وهذا لأن الكفر حكم شرعي ، كالزرق والحربية مثلاً ، إذ معناه ~~الافتقار~~
~~الحكم بالخلود في النار ، ومذكره شرعي ، فيدرك إما بنص أو~~
~~بقياس على منصوص (١) ، وبذلك النص في قوله : هو من النجس~~
~~والحق فيهم بالطريق الأول الذي لا يرد عليه في النجس~~
~~والحقيقة فيهم كذا في الرجل في كل ما فرقه من قوله : هو من~~
~~النجس كذا في قوله : هو من النجس كذا في قوله : هو من~~

...

.. ولا ينجيك .. إلا أن تعرف حد التكذيب والتصديق وحقيقتيهما
 فيه ، فيكشف لك غلو هذه الفرق وإسرافها في تكفير بعضها بعضاً .
 فأقول : التصديق إنما يتطرق إلى الخير ، بل إلى الخير ،
 وحقيقته : الاعتراف بوجود ما أخبر الرسول ﷺ عن وجوده . إلا أن
 للوجود خمس مراتب ، ولأجل الغفلة عنها نسبت كل فرقة مخالفها إلى
 التكذيب ، فإن الوجود ذاتي ، وحسي ، وخيالي ، وعقلي ، وشبهي . فمن
 اعترف بوجود ما أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام ، عن وجوده بوجه
 من هذه الوجوه الخمسة فليس بمكذب على الإطلاق ..
 واعلم أن كل من نزل قولاً من أقوال صاحب الشرع على درجة
 من هذه الدرجات فهو من المصدقين ، وإنما التكذيب : أن ينفي جميع

(١) هذا هو الأصل في قوله : هو من النجس كذا في قوله : هو من

النجس كذا في قوله : هو من النجس كذا في قوله : هو من

(١) (فيصلى التفرقة) ، ص ٥٠٤ .

هذه المعاني ، ويزعم أن ما قاله الرسول ﷺ لا معنى له ، وإنما هو كذب محض ، وغرضه مما قاله التلبيس أو مصلحة الدنيا ، وذلك هو الكفر المحض والزندقة .

ولا يلزم كفر المتأولين ، وما من فرقة من أهل الإسلام إلا وهو مضطر إليه . فابعد الناس عن التأويل أحمد بن حنبل رحمه الله عليه ، وأبعد التأويلات عن الحقيقة وأغربها أن تجعل الكلام مجازاً أو استعارة ، وهو الوجود العقلي والوجود الشبهي ، والحنبلي مضطر إليه ، وقائل به ، فقد سمعت الثقات من أئمة الحنابلة يبيحون يقولون إن أحمد بن حنبل رحمه الله صرح بتأويل ثلاثة أحاديث فقط .. لأنه لم يكن معناه في النظر العقلي .

والأشعري والمعتزلي لزيادة بحثهما ، تجاوزاً إلى تأويل ظواهر كثيرة ، وأقرب الناس إلى الحنابلة في أمور الآخرة الأشعرية - وفقهم الله - فإنهم قرروا فيها أكثر الظواهر إلا يسيراً والمعتزلة أشد منهم توغلاً في التأويلات .. (١) .

ومن الناس من يبادر إلى التأويل بغلبات الظنون من غير برهان قاطع ، ولا ينبغي أن يبادر أيضاً إلى كفره في كل مقام ، بل ينظر فيه ، فإن كان تأويله في أمر لا يتعلق بأصول العقائد ومهماتهما فلا تكفره .. ولعل الظن في مثل هذه الأمور التي لا تتعلق بأصول الاعتقاد يجري مجرى البرهان في أصول الاعتقاد فلا يكفر فيه ولا يبدع .

(١) المصدر السابق ، ص ٥٠ ، ٩٠ ، ١٠٠ .

نعم ، إن كان فتح هذا الباب يؤدي إلى تنويع قلوب العوام فيبذع به . . . وأما ما يتعلق من هذا الجنس بأصول العقائد المهمة فيجب تكفير من بغير الظاهر بخير برهان قاطع ، كالذي ينكر حشر الأجساد ، وينكر انعقوبات الحسية في الآخرة يظنون وأوهام واستبعادات من صير برهان قاطع ، فيجب تكفيره قطعاً ، إذا لا برهان على استحالة رد الأرواح إلى الأجساد ، وذكر ذلك عظيم الضرر في الدين ، فيجب تكفير كل من تعلق به . وهو مذهب أكثر الفلاسفة .

وكذلك يجب تكفير من قال منهم إن الله تعالى لا يعلم إلا نفسه ، أو لا يعلم إلا الكليات ، فأما الأمور الجزئية المتعلقة بالأشخاص فلا يعلمها . لأن ذلك تكذيب للرسول ﷺ قطعاً ، وليس من قبيل الشرجات التي ذكرناها في التأويل . .

والزندقة المطلقة : أن تنكر أصل المعاد عقلياً وحسبياً ، وتنكر الصانع للعالم أصلاً ورأساً .

وأما إثبات المعاد بتوهم عقلي مع نفى الآلام والذات الحسية ، وإثبات الصانع مع نفى علمه بتفاصيل العلوم فهي زندقة مقيدة بنوع اعتراف بصدق الأنبياء (١) .

.. وأعلم أن شرح ما يكفر به وما لا يكفر به يستدعي تفصيلاً طويلاً .. فاقع الآن بوضعية وقانون :

(١) المصدر السابق : ص ١٣ - ١٥ .

أما الوصية فإن تكف لسانك عن أهل القبلة ما أمثلك ما دأب
قائلين لا إله إلا الله محمد رسول الله ، غير منافقين لها ، والمنافقة :
تجويزهم الكذب على رسول الله ﷺ بعذر أو غير عذر ، فإن التكفير فيه
خضرة ، والسكوت لا خطر فيه .

وأما الثنون : فهو أن تعلم أن النظريات ههنا ، قسم يتعلق
بأصول الفروع ، وقسم يتعلق بالفروع ، وأصول الإيمان ثلاثة : الإيمان
بالله ، وبرسوله ، وباليوم الآخر ، وما عداه فروع .

وأعلم أنه لا تكفير في الفروع أصلاً إلا في مسألة واحدة وهي أن
يلكر أصلاً دينياً علم من الرسول ﷺ بالتواتر ، ولكن في بعضها تخطئة ،
كما في الفقهيات ، وفي بعضها تبديع ، كالخطأ المتعلق بالإمامة وأصول
الصحابة .

وأعلم أن الخطأ في أصل الإمامة وتعيينها وشروطها وما يتعلق بها
لا يوجب شيء منه التكفير ، ولا ينتفت إلى قوم يعظمون أمر الإمامة
ويجعلون الإيمان بالإمام مقروناً بالإيمان بالله وبرسوله ولا إلى خصومهم
المكفرين لهم بمجرد مذهبيهم في الإمامة ، فكل ذلك إسراف ، إذ ليس في
واحد من القولين تكذيب للرسول ﷺ أصلاً ، ومتى وجد التكذيب وجب
التكفير وإن كان في الفروع .

نعم ، لو أنك ما ثبت بأخبار الأحاد فلا يلتزم به الكفر ، ولو أنك
ما ثبت بالإجماع فهذا فيه نظر ، لأن معرفة كون الإجماع حجة قاطعة فيه
غرض يعرفه المحققون لعلم أصول الفقه . فهذا حكم الفروع .

وأما الأصول الثلاثة ، وكل ما لا يحتمل التأويل في نفسه ، وتواتر
نقله ، ولم يتصور أن يشوم برهان على خلافه فمخالفته تكذيب محض (١).

ولا ينبغي أن يظن أن التكفير ونفيه ينبغي أن يدرك قطعاً في كل مقام ،
بل التكفير حكم شرعي يرجع إلى إباحة المال وسفك الدم والحكم بالخلود
في النار ، فمأخذه كماخذ سائر الأحكام الشرعية فتارة يدرك بيقين وتارة
بظن وتارة يتردد فيه ومتى حصل تردد فالوقف فيه عن التكفير أولى ،
والمبادرة إلى التكفير إنما يغلب على طباع من يغلب عليهم الجهل .

ولابد من التنبيه على قاعدة أخرى ، وهو أن المخالف قد يخالف نصاً
متواتراً يزعم أنه مؤول ، ولكن ذكر تأويله لا انفداح له أصلاً في
اللسان ، لا على بعد ولا على قرب ، فذلك كفر ، وصاحبه مكذب وإن كان
يزعم أنه مؤول . مثاله : ما رأيته في كلام بعض الباطنية أن الله تعالى
واحد بمعنى أنه يعطي الوحدة ويخلقها ، وعالم بمعنى أنه يعطي العظم
لغيره ويخلقها ، وموجود بمعنى أنه يوجد غيره ، وأما أن يكون واحداً في
نفسه وموجوداً وعالماً على معنى اتصافه فلا ، وهذا كفر صراح ، لأن
حمل الوحدة على إيجاد الوحدة ليس من التأويل في شيء ، ولا تحتمله لغة
العرب أصلاً ، ولو كان خالق الوحدة يسمى واحداً لخلقته الوحدة
تسمى ثانياً وأربعاً لأنه خلق الأعداد أيضاً . فأمثلة هذه المقالات تكذيبات
عنها بالتأويلات ..

(١) المصدر السابق ، ص ١٥ ، ١٦ .

ومعرفة ما يقبل التأويل وما لا يقبل التأويل ليس بالهين ، بل لا يستقل به إلا الماهر الحاذق فى علم اللغة ، العارف بأصول اللغة . ثم بعادة العرب فى الاستعمال فى استعاراتها وتجاوزاتها ومنهاجها فى ضروب الأمثال^(١) .

* * *

وإن ما لا يعظم ضرره فى الدين فالأمر فيه سهل وإن كان القول شنيعاً وظاهر البطلان ، كقول الإمامية المنتظرة إن الإمام مختفياً فى سرداب قبته ينتظر خروجه ، فاته قول كاذب ظاهر البطلان ، شنيع جداً ، ولكن لا ضرر فيه على الدين ، إنما الضرر على الأحقق المعتقد لذلك ، إذ يخرج كل يوم من بلده لاستقبال الإمام حتى يدخل فيرجع إلى بيته خاسئاً — وهذا مثال — والمقصود : أنه لا ينبغي أن يكفر بكل هذيان وإن كان ظاهر البطلان .

فإذا فهمت أن النظر فى التكفير موقوف على جميع هذه المقامات التى لا يستقل بأحاديها المبرزون ، علمت أن الميائير إلى تكفير من يخالف الأشعرى^(٢) أو غيره ، جاهل مجازف ، وكيف يستقل الفقيه بمجرد الفقه بهذا الخطب العظيم ؟ وفى أى ربع من أرباع الفقه يصالغ هذه العلوم ؟ فإذا رأيت الفقيه الذى بضاعته مجرد الفقه يخوض فى التكفير والتضليل فأعرض عنه ولا تشغل به قلبك ولسانك ، فإن التحدى بالعلوم

(١) المصدر السابق ، ص ١٧ ، ١٨ .

(٢) هو أبو الحسن الأشعرى (٢٦٠ - ٣٢٤ هـ / ٨٧٤ - ٩٣٦ م) إمام أهل السنة والجماعة - والأشعرية مع الماتريدية - نسبة إلى الماتريدى (٣٢٣ هـ / ٩٤٤ م) يمثلون الجمهور الغالب من أهل السنة والجماعة .

غريزة في الطبع لا يصبر عنه الجبال ، ولأجله كثر الخلاف بين الناس .
ونو ينكت من الأيدي من لا يدرى لمرّ الخلاف بين الخلق (١) .

والحق الصريح أن كل من اعتقد ما جاء به الرسول عليه الصلاة
والسلام واشتمل عليه القرآن اعتقاداً جزءاً فهو مؤمن وإن لم يعرف
ألفظه ، بل الإيمان المستفاد من الدليل الكلامي ضعيف جداً ، مشرف على
الزوال بكل شبهة (٢) .

ولذا أقول :

إن الرحمة تشمل كثيراً من الأسماء السابقة ، وإن كان أكثرهم
يعرضون على النار إما عرصة خفيفة حتى في لحظة أو ساعة وإما في
مدة حتى يطلق عليهم اسم بعت النار .

بل أقول : إن أكثر نصارى الروم والترك في هذا الزمان شبيهم
الرحمة إن شاء الله تعالى ، أعني الذين هم في أقاصى الروم والترك وهم
تبلغهم الدعوة ، فإنهم ثلاثة أصنافه :

صنف لم يبلغهم اسم محمد ﷺ أصلاً ، فهم معذورون .

وصنف بلغهم اسمه ونعته وما ظهر عليه من المعجزات ، وهم

المعذورون لبلاد الإسلام والمخالفون لهم . وهم الكفار الملحون .

(١) (فيصل التفرقة) : ص ١٩ .

(٢) المصدر السابق : ص ٢١ - ٢٢ .

وصنف ثالث بين الدرجتين ، بلغهم اسم محمد ﷺ ولم يبلغهم نعمته وصفته بل سمعوا أيضا - منذ الصبا - أن كذابا ملتبسا اسمه محمد ادعى النبوة ، كما سمع صبياننا أن كذابا يقال له المققع^(١) بعث الله تحدى بالنبوة كاذبا . فهؤلاء عندي في معنى الصنف الأول ، فإنهم مع أنهم سمعوا اسمه سمعوا ضد أوصافه ، وهذا لا يحرك داعية النظر في الطلب ..

وأما سائر الأمم . فمن كثرة بعد ما قرع سمعه التواتر عن خروجه وصفته ومعجزته الخارقة للعادة ، كشق القمر ، وتسييح الحصى ، ونسج الماء من بين أصابعه ، والقرآن المعجز الذي تحدى به أهل القضاة وعجزوا عنه ، فإذا قرع ذلك سمعه فأعرض عنه وتولى ولم ينظر فيه ولم يكلم ولم يبادر إلى التصديق ، فهذا هو الجاهد الكاذب . وهو الكافر ، ولا يدخل في هذا أكثر الروم والترك الذين بعثت بلادهم عن بلاد المسلمين .

بل أقول : من قرع سمعه هذا فلا بد أن تتبعته به داعية الطلب ليستبين حقيقة الأمر إن كان من أهل الدين . ولم يكن من الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، فإن ثم تتبعته هذه الداعية فذلك لركونه إلى الدنيا . وخطوه عن الخوف . وخطر أمر الدين . وذلك كفر .

(١) أي عبد الله بن السقع (١٠٦ - ١٤٢ هـ / ٧٢٤ - ٧٥٩ م) اتهم بالزندقة ، وقتله المهدي العباسي - في البصرة - في ولاية أميرها سفيان بن معاوية الميملي .

وإن انبثت الداعية فقصر في الطلب ، فهو أيضاً كفر ، بل ذو الإيمان بالله واليوم الآخر من أهل كل ملة لا يمكنه أن يفتر عن الطلب بعد ظهور المخايل بالأسباب الخارقة للعادة .

فإن اشتغل بالنظر والطلب ولم يقصر فأدركه الصوت قبل تمام التحقيق فهو أيضاً مغفور له ، ثم له الرحمة الواسعة ، فاستوسع رحمة الله تعالى ولا تزن الأمور الإلهية بالموازين المختصرة الرسمية ..

والمخلدون في النار بالإضافة إلى الناجيين والمخرجين منها في الآخرة نادر ، فإن صفة الرحمة لا تتغير باختلاف أحوالنا ، وإنما الدنيا والآخرة عبارتان عن اختلاف أحوالك ، ولولا هذا لما كان لقوله عليه الصلاة والسلام معنى حيث قال : " أول ما خط الله في الكتاب الأول : أنا الله لا إله إلا أنا ، سبقت رحمتي غضبي " فمن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فله الجنة ..

فابشر برحمة الله وبالنجاة المطلقة إن جمعت بين الإيمان والعمل الصالح ، وبالهلاك المطلق إن خلوت عنهما جميعاً ، وإن كنت صاحب يقين في أصل التصديق وصاحب خطأ في بعض التأويل أو صاحب شك فيهما أو صاحب خلط في الأعمال فلا تطمع في النجاة المطلقة " (١) .

" .. واعلم أن للفرق في (التكفير) مبالغات وتعصبات ، فربما انتهى بعض الطوائف إلى تكفير كل فرقة سوى الفرقة التي يعتزى إليها .

(١) (فصل التفرقة) ، ص ٢٣ - ٢٥ .

فإذا أردت أن تعرف سبيل الحق فيه فاعلم قبل كل شئ أن هذه مسألة فقهية ، أعنى الحكم بتكفير من قال قولا وتعاطى فعلا ، فإنها تارة تكون معلومة بأدلة سمعية ، وتارة تكون مظنونة بالاجتهاد ، ولا مجال لدليل العقل فيها البتة (١) .

فإذا تقرر هذا الأصل ، فقد قررنا فى أصول الفقه وفروعه أن كل حكم شرعى يدعى مدع فإنما أن يعرفه بأصل من أصول الشرع من إجماع أو نقل أو بقياس على أصل . وكذلك كون الشخص كافرا ، إما أن يدرك بأصل أو بقياس على ذلك الأصل .

والأصل المقطوع به أن كل من كذب محمدا ﷺ فهو كافر ، أى سخط فى النار بعد الموت ~~ويعتبر كافرا~~ - إلى جنّة الأحكام - إلا أن التكذيب على مراتب :

الرتبة الأولى : تكذيب اليهود والنصارى وأهل الملل كلهم من المجوس وعبدة الأوثان وغيرهم ، فتكفيرهم منصوص عليه فى الكتاب ، ومجمع عليه بين الأمة ، وهو الأصل ، وما عداه كالملاحق به .

الرتبة الثانية : تكذيب البراهمة المنكرين لأصل النبوات ، والذهرية المنكرين لصانع العالم ، وهذا ملحق بالصصوص بطريق الأولى . لأن هؤلاء كذبوه وكذبوا غيره من الأنبياء - أعنى البراهمة - فكانوا بالتكفير أولى من النصارى واليهود . والذهرية أولى بالتكفير من البراهمة . لأنهم

(١) أبو حامد الغزالي (الاقتصاد فى الاعتقاد) ، ص ١٩١ ، طبعة مكتبة صبيح - ضمن مجموعة - القاهرة ، بدون تاريخ .

أضافوا إلى تكذيب الأنبياء إنكار المرسل ، ومن ضرورية إنكار النبوة ،
ويستحق بهذه الرتبة كل من قال قولاً لا يثبت النبوة في أصلها ، أو نبوة
نبيها محمد على الخصوص إلا بعد بطلان قوله .

الرتبة الثالثة : الذين يصدقون بالنصائع والنبوة ، ويصدقون أنفسهم
ولكن يعتقدون أموراً تخالف تصوص الشرع ، ولكن يقولون إن النبي
محق ، وما قصد بما ذكره إلا صلاح الخلق ، ولكن لم يفر على التصريح
بالحق لكلا أقسام الخلق عن دركه . وهؤلاء هم الفلاسفة ، وهؤلاء يجب
تكفيرهم في ثلاثة مسائل ، وهي :

إنكارهم لحضرة الأجساد والتعذيب بالدار والنتعيم في الجنة بالحور
العين والماكول والمشروب والمبوس ، والأخرى فولسليم إن الله لا يعلم
الجزئيات وتفصيل الحوادث وإنما يعلم الكليات ، وإنما الجزئيات تعلمها
الملائكة السماوية .

والثالثة قولهم إن العالم قديم ، وأن الله تعالى متقدم على العالم بالترتبة
سئل تقدم العلة على المعلول ، وإلا فلم تر في الوجود إلا متساويين .

وهؤلاء إذا أوردوا عليهم آيات القرآن زعموا أن الذات العقلية
تفهم الأفهام عن دركها ، فسئل لهم ذلك بالذات الحسية . وهذا كفر
صريح ، والقول به إبطال لفائدة الشرائع وعد أبواب الاهتداء بنور القرآن
واستبعاد الرشاد عن قول المرسل ، فإنه إذا جاز عليهم الكذب لأجل المصالح
بطلت الثقة بأقوالهم ، فما من قول يصدر عنهم إلا وينصرون أن يكون
كذباً ، وإنما قالوا ذلك لمصلحة .

(فإن قيل) : فلم قلتم ، مع ذلك ، بأنهم كفرة ؟

قلنا : لأنه عرف قطعاً من الصريح أن من كذب رسول الله فهو كافر .
وهؤلاء مكذبون . ثم مغلطون الكتاب بمعانير فاسدة ، وذلك لا يصرح الكلام
عن كونه ثانياً .

الرتبة الرابعة : المعتزلة والتمنيية والفرق كلها - سوى الفلاسفة -
وهم الذين يصدقون ، ولا يجوزون الكذب لمصلحة وغير مصلحة ،
ولا يستغفون بالتغليل لمصلحة الكذب . بل بالتأويل ، ولكنهم مخطئون في
التأويل ، فهؤلاء أمرهم في محل الاجتهاد . والذي ينبغي أن يميز
المحصل إليه ، الاختراز من الكثير ما وجد إليه سبيلاً . فإن استباحة
الدماء والأموال من المصالح إلى إثبات المصالحين بقول لا إله إلا الله
صحة رسول الله خطأ ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أمون من
الخطأ في سبك محجمة من دم مسلم ..

وهذه الفرق مقسمون إلى مرفقين وشذاة وفي مقامين بالإضاف
لديهم . ثم المجتهد الذي يرى الكفر قد يكون ظنه في بعض المسائل
وعلى بعض الفرق التأييد . وعصمير أحد تلك المسائل يقول : ثم يشير
لفتن والأحقاد ، فإن أكثر الخاطئين في هذا إنما يحركهم التعصب
واتباع الهوى دون النظر للدين .

ودليل المنع من تكفيرهم أن ثابت عندنا بالنص تكفير المكذب
لرسول ، وهؤلاء ليسوا مكذبين أصلاً ، ولم يثبت لنا أن الخطأ في
التأويل موجب للتكفير ، فلا بد من دليل عليه ، ويثبت أن العصمة مستفادة
من قول لا إله إلا الله قطعاً ، فلا يدفع ذلك إلا بقاطع . وهذا القدر كاف

فى التنبيه على أن إسراف من بالغ فى التكفير ليس عن برهان ، فإن البرهان إما أصل أو قياس على أصل ، والأصل هو التكذيب الصريح ، ومن ليس بمكذب فليس فى معنى المكذب أصلاً ، فببقى تحت عنوان العصمة بكلمة الشهادة .

الرتبة الخامسة : من ترك التكذيب الصريح ولكن ينكر أصلاً من أصول الشرعيات المعلومة بالتواتر من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو القائل : السلوات الخمس غير واجبة ، فإذا قرئ عليه القرآن والآل لم يستألم صدر هذا من رسول الله ، فلعنه غلطاً وتحريداً . وكمن يقول أنا معتزلة بوجوب الحج ، ولكن لا أدري أين مكة وأين الكعبة ولا أدري أن البلد الذى تنحله الناس ويحجونه هل هو الذى حجه النبي عليه الصلاة والسلام ووصفها القرآن ، فهذا أيضاً يلغى أن يحكم بكفره لأنه مكذب ولكنه محترز عن التصريح ، وإلا فالمتواترات تشترك فى تركها العوام والخواص .. إلا أن يكون هذا الشخص قريب عهد بالإسلام ، ولم يتواتر عنده بعد هذه الأمور فيمهل إلى أن يتواتر عنده ، ولنا تكفيره لأنه أنكر معلوماً بالتواتر ، وأنه لو أنكر غزوة من غزوات النبي ﷺ المتواترة ، أو أنكر وجود أبى بكر وخلافته لم يلزم تكفيره ، لأنه ليس تكذيباً فى أصل من أصول الدين مما يجب التصديق به ، بخلاف الحج والصلاة وأركان الإسلام ولنا تكفيره بمخالفة الإجماع .. لأن الشبهة

كثيرة في كون الإجماع حجة قاطعة ، وإنما الإجماع عبارة عن التطابق على رأى نظرى (١) .

هكذا رأينا جمهور أهل السنة والجماعة — بلان حجة الادلل أبو حامد الغزالي — لا يكفرون أحدا من أهل ائقفة شلهد أن لا لله إلا الله محمد رسول الله ..

* لا يكفرون الشيعة الإمامية بقولهد فى الإمامة ، رغم ما فى عقيدتهم هذه من حصادة وثبوت .. ورغم تكفير جمهور الشيعة لمن لا يتفق معهم فى عقيدتهم فى الإمامة .

ولا يكفرون أحدا من المتأولين الذين ، يلتزمون قوانين التأويل .. * ولا يكفرون أحدا من الفرق الصالحفة — مثل المعتزلة أو المشبهية أو غيرها — لأن معيار الإيمان هو التصديق بما جاء به رسول الله نفا .. ومعيار الكفر هو التكذيب لما جاء به الرسول — وخاصة فى الأصول ..

ومن هنا كان زجرهم عن المسارعة إلى التكفير .. وتأكيدهم على أن هذه القضية فقهية شرعية لا تثبت إلا بأصل أو قياس على هذا الأصل ..

ولا تثبت بالرأى والعقل .. ومن ثم فإن الاحتراز من التكفير واجب ما وجد ائمرء إليه سبيلا ، فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى ائقبلة ، المصرحين بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله خطأ ، والخطأ فى

(١) المصدر السابق ، ص ١٤٢ — ١٤٥ .

ترك الكافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك محبة من دم
صلى !

— كما يقول الغزالي — :

ومعجزة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده :

أصل من أصول الأحكام في الإسلام : البعد عن التكفير .. ولما
اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد دينهم أنه إذا صدر قول من قائل
يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد . حمل على
الإيمان . ولا يجوز حمله على الكفر .. فهل رأيت تسامحاً مع أقوال
الفلاسفة الحكماء أوسع من هذا ؟ وهل يليق بالكيد أن يكون من
الحمق بحيث يقول قولاً لا يحتمل الإيمان من وجه واحد من مائة
وجه ؟^(١)

(١) (الأعمال النكسة للإمام محمد عبده) ، ج ٣ ، ص ٢٠٢ ، طبعة القاهرة

سنة ١٩٩٢ م .

مستويات الخطاب .. ومستويات المخاطبين

يؤمن المنهج الإسلامي بوحدة الحقيقة .. وليس بتعددتها — كما هو الحال في المناهج الوضعية الغربية ، التي تقسم الحقيقة إلى : عقلية علمية لا دينية " ودينية لا عقلانية " .

ويؤمن المنهج الإسلامي بحق كل إنسان مكلف في السعي إلى طلب الحقيقة وتحصيلها .. " فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها " .. وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة .. أى أن الإسلام يتجاوز جعل العلم والحكمة والحقيقة مجرد " حق " من حقوق الإنسان ، إلى حيث يجعل ذلك " فريضة إلهية وتكليفاً شرعياً وواجباً ربانياً " لأنه لا يسرى بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، ولأن خطاب الإسلام موجه — بالأساس — إلى الذين يتفكرون ويتنبرون ويعقلون .. ولأن الدين علم ، ودون العلم والمعرفة استحيل على الإنسان أن يهضر بالأمانة التي حملها ، أمانة العمران لهذا الكوكب الذي يعيش فيه .. والشكر نواهب النعم في هذا الوجود ..

لكن .. لما كانت مستويات الناس — الفطرية " والكسبية ، متفاوتة ، تفاوتت — لذلك — إمكاناتهم وطاقتهم وحظوظهم في تحصيل ما يحصلون

من الحقائق والمعارف والعلوم .. وليس في ذلك شبهة طبقية ولا كهانة ،
كتلك التي عرفتها حضارات قديمة وديانات أخرى ، حجرت على عامة
الناس ميادين كثيرة من العلم الديني والمعارف الدنيوية .. وإنما هو
المنهج الإسلامي الذي يفتح أبواب ميادين المعارف والعلوم على
مصاريعها أمام الكافة ، ثم يطلب من كل إنسان أن يحمل من العلم قدر
الطاقة والاستعداد والجهد الذي يبذله في الطلب والتحصيل .

ولهذه الحقيقة من حقائق المنهج الإسلامي تمايزت مستويات
' الخطاب الإسلامي ' وفق تمايز المستويات العقلية للمخاطبين .. فمع
وجود المقادير الضرورية التي لا يستغنى عنها المكلف من المعارف
والعلوم .. الدينية والدنيوية — هناك مستويات وألوان من الحقائق
والمعارف والعلوم لا يدركها إلا العلماء .. وهناك مستويات أخرى
لا يدركها إلا الراسخون في العلم .. ووراء جميع ذلك هناك مستويات من
العلم لا يدرك العقل الإنساني كنه حقائقها وجوهر مكنوناتها .. بل
لا تستطيع اللغة أن تعبر عن هذا الجوهر والكنه والمكنون ، لأنها من علم
الله الكلي والمطلق والمحيط ، وليست من العلم النسبي والمعارف النسبية
المقدورة للإنسان .. ولهذا القسم من العلم الإلهي يضرب الله الأمثال التي
تقرب صورته إلى الإنسان .

ولهذا الحقيقة من حقائق هذا المنهج الإسلامي ، في تعدد مستويات
الخطاب الإسلامي ، وفق تعدد مستويات الإدراك والتعقل لدى المخاطبين ،

ميز القرآن الكريم بين " المحكم " الذى يدركه جمهور المخاطبين .. وبين
" المتشابه " ، الذى يعرف تأويل بعضه الراسخون فى العلم .. ولا يدرك
مآلات بعضه الآخر إلا الله — سبحانه وتعالى — .. ودعا الإسلام الكافية
إلى تجنب تأويل هذا القسم ، الذى تعلو حقائقه الكلية عن مدارك العقل
النفسية ، كى لا تكون فتنة بين الناس .

ولقد جاء فى الحديث النبوى الشريف : " أمرنا أن نكتم الناس على
قدر عقولهم — رواه الديلمى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — وأورده
المسيوطى فى [جامع الأحاديث] .

ولقد عقد الإمام البخارى — فى كتاب العلم — باباً " لمن خص بالعلم
قوما دون قوم كراهة أن لا يفهموا " .. وأورد فيه عن على بن أبى طالب
— رضى الله عنه — قوله : " حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب
الله ورسوله ؟ " .

وفى مقالات الإسلاميين لإمام أهل السنة والجماعة أبو الحسن
الأشعرى (٢٦٠ — ٣٢٤ هـ — ٨٧٤ — ٩٣٦ م) [نجد أن " المباحث العالية فى
دقيق الكلام " لا يدركها إلا الراسخون فى العلم من أصحاب المقالات ..

وانطلاقاً من هذه الرؤية ، كان اجتماع علماء الإسلام على ضرورة
حجب مستويات من العلم عن الذين لم يحصلوا من الأدوات ما يجعلهم
يطبقون فقه هذه المستويات ، وذلك حتى لا تتحول الحقائق — عند من
لا طاقة لهم بفقهها — إلى سبيل من سبل البلبلة أو الضلال ، أو الشكوك
التي لا يستطيعون التخلص من دواماتها إلى شاطئ اليقين والاطمئنان .

* ولقد كان حجة الإسلام أبو حامد الغزالي [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ - ١٠٥٨ - ١١١١] من أكثر العلماء الذين وضعوا الكتب والرسائل في تقعيد قواعد هذا المنهاج - منهاج التمييز والتحديد لمستويات الخطاب ، وفق تمايز مستويات المخاطبين ..

ومن الكتب النفيسة التي خصصها الغزالي لهذا المنهج كتابه : [إحياء العوام عن علم الكلام] .. ذلك أن علم الكلام إنما نشأ - في الحضارة الإسلامية - على يد المعتزلة - للرد على خصوم الإسلام ، وللمجادل مع المعتندين من أصحاب الفلسفات والديانات غير الإسلامية .. فهو بمثابة " ترسانة الحرب الخارجية " القائمة على الثغور .. فإذا تحولت أسلحته إلى " الصراعات الداخلية " وإذ استخدم هذه الأسلحة غير المدربين على استخدامها ، وغير القادرين على حملها ، كانت فتنة كبرى بين الجمهور والعوام .

ولذلك ، قرر الغزالي - في هذا الكتاب - أن من بחר علم الكلام ومبادئه ومصطلحاته ما لا تجوز السباحة فيه لغير القادرين على فقه " دقيق الكلام " .. وهو يرد على الذين يتكبرون تمايز مستويات الخطاب بتمايز مستويات المخاطبين ، بحجة عموم الخطاب ، وأن الله - سبحانه وتعالى - لا يخاطب الخلق بما لا يفهمون .. يرد الغزالي على أصحاب هذا القول .. ويحاورهم .. فيقول :

" .. وإن قلت :

- فأى فائدة في مخاطبة الخلق بما لا يفهمون ؟

وجوابك :

— إنه قصد بهذا الخطاب تفهيم من هو أهله ، وهم الأولياء والراسخون في العلم ، وقد فهموا ، وليس من شرط من خاطب العقلاء بكلام أن يخاطبهم بما يفهم الصبيان والعوام بالإضافة إلى العارفين كالصبيان بالإضافة إلى البالغين ، ولكن على الصبيان أن يسألوا البالغين عما يفهمونه ، وعلى البالغين أن يجيبوا الصبيان بأن هذا ليس من شأنكم ، ونستم من أهله ، فخوضوا في حديث غيره .

ويجب على كل من لا يقف على كنه هذه المعاني وحقيقتها ، ولم يعرف تأويلها والمعنى المراد به أن يقر بالعجز ، فإن التصديق واجب ، وهو عن دركه عاجز ، فإن ادعى المعرفة فقد كذب . . .

بل إن الراسخين في العلم والعارفين من الأولياء إن جاوزوا في المعرفة حدود العوام وجالوا في ميدان المعرفة ، وقطعوا من بواديها أميالا كثيرة ، فما بقي لهم مما لم يبلغوه بين أيديهم أكثر ، بل لا نسبة لما طوى عنهم إلى ما كشف لهم ، لكثرة المطوى وقلة المكشوف بالإضافة إليه ، بالإضافة إلى المطوى المستور .

وإن مستند إيمان العوام في هذه الأسباب وأعلى الدرجات في حقه : أدلة القرآن وما يجري مجراه مما يحرك القلب إلى التصديق ، ولا ينبغي أن يجاوز بالعامي إلى ما وراء أدلة القرآن وما في معناه . بل لو اشتغل العامي بالمعاصي البدنية ربما كان أسلم له من أن يخوض في البحث عن

معرفة الله تعالى ، لأن ذلك غايته الفسق ، وهذا عاقبته الشرك ، وإن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء^(١) .

كما كتب الغزالي — كذلك — في هذا الفن — كتابه : [المضمون به على غير أهله] .. وفيه يقرر أن من الحقائق ما لا يعلمها العقلاء — فضلا عن العوام — لأنها مما استأثر الله — سبحانه — بعلمه :

ذلك أن وراء ما يتصوره العقلاء أموراً ورد الشرع بها ولا يعلم حقائقها إلا الله تعالى والأنبياء الذين هم وسائط بين الله تعالى وبين عباده^(٢) .

كما كتب الغزالي — أيضاً في هذا الموضوع رسالته [الأجوبة الغزالية في المسائل الأخروية] أي [المضمون الصغير] .. وفيها تحدث عن مذهب السلف ، الذي هو : زجر العوام عن الخوض في علم الكلام .. وإباحته للراشخين في العلم ، مستخدماً مثال السباحة في النهر للتمييز بين القادرين عليها وبين غير القادرين .. فقال :

.. ولهذا زجر السلف عن البحث والتفتيش عن علم الكلام ، وإنما زجروا عنه لضعاف العوام . وأما المشتغلون بدرك الحقائق فلهم خوض غمرة الإشكال . ومنع الكلام للعوام يجرى مجرى منع الصبيان من شاطئ

(١) الغزالي [إحياء العوام عن علم الكلام] ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٩٧ ، ٢٦٣ . طبعة القاهرة — مكتبة الجندي ضمن مجموعة [القصور العوالي من رسائل الإمام الغزالي] بدون تاريخ .

(٢) الغزالي [المضمون به على غير أهله] ص ٢٤٥ — طبعة مكتبة الجندي — ضمن مجموعة [القصور العوالي] ..

نهر دجلة خوفاً من الغرق ، ورخصة الأقوياء فيه تضاهي رخصة الملهر
في صنعة السباحة ^(١) .

هكذا أقاض حجة الإسلامي أبو حامد الغزالي في تحديد مستويات
الخطاب وفق تمايز مستويات المخاطبين .

* * *

* فلما جاء الفيلسوف الفقيه أبو الوليد ابن رشد [٥٢٠-٥٩٥هـ —
١١٢٦-١١٩٨م] سار على طريق الغزالي .. فحدث عن وحدة
الحقيقة . وعن تعدد طرق التصديق بهذه الحقيقة الواحدة وذلك تبعاً لتعدد
مستويات المخاطبين المكلفين بهذا التصديق .

فهو يؤكد على وحدة الحقيقة في الذات الإلهية .. وفي الشريعة
الإلهية .. وفي المخلوقات مع تعدد طرق التصديق بهذه الحقيقة الواحدة ،
تبعاً لتعدد طبقات الناس وطبائع الجمهور ؛ عامة وحكماء .. وموسطين
بينهما .. فيقول :

‘ إنا نعتقد ، معشر المسلمين ، أن شريعتنا هذه الإلهية حق ، وأنها
التي نجهت على هذه السعادة ودعت إليها ، التي هي المعرفة بالله — عز
وجل — وبمخلوقاته ، فإن ذلك متقرر عند كل مسلم من الطريق الذي
اقتضته جبلته وطبيعته من التصديق ، وذلك أن طبائع الناس متفاضلة في
التصديق ، فبعضهم من يصدق بالبرهان ، ومنهم من يصدق بالأنشأويل

(١) الغزالي [المصنفون الصغير] ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ — طبعة مكتبة الجندى — ضمن
مجموعة [القصور العوالي] .

الجدلية تصديق صاحب البرهان بالبرهان ، إذ ليس في طباعه أكثر — من ذلك — ومنهم من يصدق بالأقوال الخطابية كتصديق صاحب البرهان بالأقوال البرهانية . وشريعتنا قد دعت الناس من هذه الطرق الثلاث . . . وذلك خصّ عليه الصلاة والسلام بالبحث إلى الأحمر والأسود . أعنى لتضمن شريعته طرق الدعاء إلى الله تعالى ، وذلك صريح في قوله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » (١) .

وهذا التمايز بين الناس — حكماء .. وجمهور .. — واسطويح بينهما — ليس في تمايز الحقائق والمعاني التي يدركها التي يدركها فريق عن الفريق الآخر .. وإنما هو في " القدر " والنصيب " الذي يستطيع إدراكه كل فريق من ذلّة الحقيقة الواحدة .. وبعبارة ابن رشد :

« فالطريقة الشرعية التي دعا الشّرع منها جميع الناس على اختلاف فطرهم ، إلى الإقرار بوجود الباري سبحانه .. والتي تبه الكتاب العزيز عليها ، واعتمدتها الصحابة .. تنحصر في جنسين . دليل العناية ، ودليل الاختراع .. ولقد تبين أن هاتين الطريقتين هما بأحيائهما طريقة الخواص — وأعنى الخواص العلماء — وطريقة الجمهور . وإنما الاختلاف بين المعرفتين في التفصيل ، أعنى أن الجمهور يقتصرون من معرفة العناية والاختراع على ما هو مدرك بالمعرفة الأولى المبنية على علم الحس ، وأما العلماء فيزيدون على ما يدرك من هذه الأشياء بالحس

(١) النحل : ١٢٥ .

ما يدرك بالبرهان ، أعنى من العناية والاختراع .. والعلماء ليس يفضلون الجمهور فى هذين الاستدلالتين من قبل الكثرة فقط ، بل ومن قبل التعمق فى معرفة الشيء الواحد نفسه . فإن مثال الجمهور فى النظر إلى الموجودات مثالهم فى النظر إلى المصنوعات التى ليس عندهم علم بصنعتها ، فإتهم إنما يعرفون من أمرها أنها مصنوعات فقط وأن لها صانعا موجودا . ومثال العلماء فى ذلك مثال من نظر إلى المصنوعات التى عندهم علم ببعض صنعتها ويوجه الحكمة فيها . أما مثال الدهرية فى هذا ، الذين جحدوا الصانع سبحانه ، فمثال من أحس مصنوعات قلم يعترف أنها مصنوعات ، بل ينسب ما رأى فيها من الصنعة إلى الاتفاق والأمر الذى يحدث من ذاته .. (١)

" وإذا كان الغزالى قد دعا إلى منع غير الراسخين فى العلم من التأويل .. فإن ابن رشد قد دعا إلى منع التأويل فى مبادئ الشريعة وفى المعجزات — أى فيما لا تدركه العقول الإنسانية — حتى على الحكماء من الفلاسفة .. فقال :

" فإن الحكماء من الفلاسفة ليس يجوز عندهم التكلم ولا الجدل فى مبادئ الشرائع ، وفاعل ذلك عندهم يحتاج إلى الأدب الشديد ، وذلك أنه لما كانت كل صناعة لها مبادئ ، وواجب على الناظر فى تلك الصناعة أن يسلم مبادئها ، ولا يتعرض لها ينقضى ولا يبطل ، كانت الصناعة العملية

(١) ابن رشد [مناهج الأدلة فى عقائد الملة] ص ١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٥٤ . دراسة وتحقيق :

د . محمود قاسم . طبعة القاهرة ١٩٥٥ م .

الشرعية أخرى بذلك ، لأن المشى على الفضائل الشرعية هو ضرورى عندهم ، ليس فى وجود الإنسان بما هو إنسان ، بل وبما هو إنسان عالم ، ولذلك يجب على كل إنسان أن يسلم مبادئ الشريعة وأن يقلد فيها ، فإن جحدھا والمناظرة فيها مبطلان لوجود الإنسان ، ولذلك يجب قتل الزنادقة . فالذى يجب أن يقال فيها : إن مبادئها أمور إلهية تفوق العقول الإنسانية ، فلا بد أن يعترف بها مع جهل أسبابها ، ولذلك لا تجد أحداً من القدماء تكلم فى المعجزات ، مع انتشارها وظهورها فى العالم ، لأنها مبادئ تثبتت الشرائع ، والشرائع مبادئ الفضائل ، ولا فيما يقال بعد الموت .

فإذا نشأ الإنسان على الفضائل الشرعية كان فاضلاً بإطلاق . فإن تمادى به الزمان والسعادة إلى أن يكون من العلماء الراسخين فى العلم ، فعرض له تأويل فى مبدأ من مبادئها ، فيجب عليه أن لا يصرح بذلك التأويل ، وأن يقول فيه كما قال - تعالى - : « والراسخون فى العلم يقولون آمنا به » (١) .

إنه لا يجوز التأويل فى مبادئ الشريعة - [لأن التأويل هو عمل العقل فى الانتقال بدلالة اللفظ من الحقيقة إلى المجاز ، وفق قوانينه] - وهذه المبادئ الإلهية تفوق العقول الإنسانية .. وواجب كل إنسان أن يسلم بها ويقتد فيها .. هذه هى حدود الشرائع وحدود العلماء (٢) .

(١) آل عمران - ٧ .

(٢) ابن رشد [تهافت التهافت] ص ١٢٤ ، ١٢٥ . طبعة القاهرة ١٩٠٣ م .

هكذا حدد ابن رشد حدود الشرائع ، ومبادئها التي لا يجوز فيها
الجدل ولا التأويل .. كما حدد حدود الجمهور وطريقتهم في التصديق ..
وحدود أهل الجدل من المتكلمين .. وكذلك حدود الحكماء والعلماء وسبيلهم
البرهاني إلى التصديق .

* وكما نبه ابن رشد على مذهب السلف في عدم التأويل ، نبه على
أن ظهور التأويل في الفكر الإسلامي قد ارتبط بتراجع التقوى في
المجتمعات الإسلامية .. فقال :

* إن المصدر الأول إنما صار إلى الفضيلة الكاملة والتقوى باستعمال
هذه الأقاويل التي ثبتت في الكتاب العزيز * دون تأويلات فيها ، ومن كل
منهم وقف على تأويل لم ير أن يصرح به .

وأما من أتى بعدهم ، فإنهم لما استعملوا التأويل قلّ تقواهم ، وكثر
اختلافهم ، وارتفعت محبتهم وتفرقوا فرقاً ، فيجب على من أراد أن يرفع
هذه البدعة عن الشريعة ، أن يعمد إلى الكتاب العزيز ، فيلتقط منه
الاستدلالات الموجودة في شيء شيء ، مما كلفنا اعتقاده ، ويجتهد في
نظره إلى ظاهرها ما أمكنه من غير أن يتأول من ذلك شيئاً ، إلا إذا كان
التأويل ظاهراً بنفسه أعنى ظهوراً مشتركاً للجميع ^(١) .

* ومع كل هذه الضوابط التي أحاط بها ابن رشد قضية التأويل ..
وتقديم أساليب القرآن في الاستدلال وفي التصديق على غيرها من

(١) ابن رشد [فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال] ص ٦٥ ، دراسة

وتحقيق : د . محمد عمارة ، طبعة القاهرة - دار المعارف - ١٩٩٩ م .

الأساليب .. رأيناه يؤكد على أن هذا التأويل الذي هو حق للخاصة من
الراسخين في العلم ، لا يصرّح به للعامة ، ولا يُثبت في الكتب الجمهورية
— حتى ولو كان تأويلاً صحيحاً ، مستجماً لشروط التأويل وضوابطه ..
وبعبارة : :

١ .. فهذا التأويل ليس ينبغي أن يصرّح به لأهل الجدل . فضلاً
عن الجمهور ، ومتى صرح بشيء من هذه التأويلات لمن هو من غير
أهلها .. أفضى ذلك بالمصرّح له والمصرّح إلى الكفر .. فليس يجب أن
تثبت التأويلات الصحيحة في الكتب الجمهورية ، فضلاً عن القاسدة ..
وأما المصرّح بهذه التأويلات لغير أهلها فكافر .. (١) .

* * *

هذا هو المنهاج الإسلامي في :

* وحدة الحقيقة .

* وتعدد طرق التصديق بالحقيقة الواحدة ، تبعاً لتمييز مستويات

المخاطبين والمكلفين بهذا التصديق .. مستويات :

١— أهل البرهان من الحكماء والعلماء الراسخين في العلم .

٢— وأهل : الجدل — من المتكلمين .

٣— وأهل الخطابة والمواعظ .. من الجمهور .

(١) المصدر السابق . ص ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ . وانظر كذلك [مناهج الأدلة]

وإذا كان هذا المنهاج الإسلامي بديها ، لا تختلف فيه ولا حولها
 القطر السليمة والعقول المستقيمة .. فلقد جاء القرآن الكريم مركزا له
 ومؤكدا عليه .. فرأينا فيه التمييز بين العلماء وبين الراسخين في العلم ..
 ووجدناه يدعو غير العلماء إلى الرجوع إلى أهل العلم — أهل الذكر — :
 « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » (١) .

كما وجدنا واقع المجتمع الإسلامي في عصر النبوة تجسيدا لهذا
 المنهاج ..

* فالخطاب الإسلامي عام للكافة والعالمين : « إن هو إلا ذكر
 للعالمين » (٢) . « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (٣) . « تبارك الذي
 نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » (٤) .

* لكن المخاطبين بهذه الرسالة العامة والعالمية ليسوا سواء ، فسي
 مستويات الثقيل أو في طاقات الفقه والاستيعاب .. ومن ثم فلقد تمايزت
 مستويات الخطاب الإسلامي وأساليبه لتناسب مستويات المخاطبين ، وكانت
 الأساليب القرآنية القبطرية مشتركة بين الجميع ووافية باحتياجات الجميع ..
 * ولذلك ، رأينا مجتمع النبوة تجسيدا لهذا المنهاج .. فالذين آمنوا
 بالإسلام وعاصروا رسول الله ﷺ وصحبوه ، قد بلغ عندهم يوم وفاته
 ١٢٤,٠٠٠ لكن الذين كانت لهم قدم في العلم والجهاد والصحة — من بين

(١) النحل : ٤٣ .

(٢) يوسف : ١٠٤ .

(٣) الأنبياء : ١٠٧ .

(٤) الفرقان : ١ .

هذا الجمهور - قد أحصاهم العلماء في كتب أعلام الصحابة ، فوجدناهم
 - كما في [أسد الغابة في معرفة الصحابة] لابن الأثير [٥٥٥ -
 ٦٣٠ هـ - ١١٦٠ - ١٢٣٣ م] - أقل من ثمانية آلاف - ٧.٧٠٣ مع تفاوت
 في الفقه وفي الرسوخ العلمي بين هذه النخبة و الصفوة التي تخرجت في
 مدرسة النبوة ، على عهد رسول الله ﷺ الأمر الذي أكد - دائماً وأبداً -
 تمايز مستويات الخطاب الإسلامي بتمايز مستويات مخاطبين بهذا
 الخطاب .

ثورة الإعلام المعاصر .. وإشاعة فتنة التكفير بين الجماهير

وإذا كانت ثورة الاتصالات المعاصرة قد مثلت نعمة كبرى من نعم الله في العلم الحديث ، عندما يسرت على الناس سبل المعرفة ، وأباحت ثمرات العقول الإنسانية لجماهير الأمم والشعوب من مختلف الحضارات والقارات والطبقات .. فإن لهذه الثورة سلبيات عديدة ، منها — فيما يتعلق بموضوع بحثنا — نقل كثير من المسائل الجدلية والخلافية من مصادرها المتخصصة ، والمقصورة على العلماء المتخصصين إلى الكتب الجماهيرية والمواقع المتعددة على الشبكة العالمية للمعلومات ، وهي كتب ومواقع غدت — في أحيان كثيرة — تغمر وتستدرج جمهورا كبيرا من غير المتخصصين ، يل وغير المؤهلين للاطلاع على مسائل وقضايا ومجالات تزعزع ما لدى الجمهور من اليقين ، دون أن يكون هذا الجمهور قادرا على تحصيل يقين بديل لذلك الذي زعزعه هذه الجدليات وما فيها من شبهات كما تنشر هذه الكتب الجماهيرية ومواقع " الإنترنت " — وبعض الفضائيات — خلافا للفرق وصراعات المذاهب وجدليات التيارات الفكرية بين العامة ، فتشعل نيران التعصب والتمزق والتشرذم بين جماهير أمة الإسلام .

* لقد نقلت وسائل الإعلام والاتصال هذه كثيرا من مسائل علم الكلام
— الفلسفية — وأدلتها الجذنية — وهي أدلة لا تحقق طسأينة إيمانية — لأنها
ليست الأدلة الفطرية ، نقلتها إلى عامة الجمهور وجمهور العمة .

* وبعد أن كانت " الجدليات الكلامية " سلاحا في مواجهة خصوم
الإسلام ، وفي اندفاع بين المؤمنين والمعادين .. نقلت كثير من المنابر
الإعلامية و" مواقع الإنترنت " — التي أنشأتها مذاهب وتيارات إسلامية —
نقلت هذه " الجدليات الكلامية " إلى العامة والجمهور .. حتى لقد رأينا
أخطر القضايا — وهي قضية تكفير من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا
رسول الله — يتبع الحديث عنها و الجدل حولها والتكاذف بها بين من
لا يحسن اتقنه لفروع العبادات والمعاملات ، فضلا عن الفقه لدقيق الكلام
في أصول الاعتقادات !! .. بل لقد عدت " شبهة الشغب " فنا من الفنون
التي يتبارى في عرض فصوله المتفرغون له .. ويسعى لإدمان مشاهدته ،
وتفريغ الغرائز الصراعية في متابعته جمهور عريض من الناس !! ..

* فبعد أن كان المنهاج الإسلامي يدعو إلى [الجام العوام عن علم
الكلام] .. وبعد أن كنا نقرأ في مصادر هذا العلم — على لسان حجة
الإسلام أبو حامد الغزالي ، وغيره — :

التحذير من تكفير الفرق ، وتطويل اللسان في أهل الإسلام ، وإن
اختلفت طرقهم ، ما داموا متمسكين بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله .
صادقين بها ، غير متقاضين لها.. لأن الكفر حكم شرعي لا يدرك
إلا بمدرك شرعي ، من نص أو قياس على منصوص .. ولا يلزم كفر
المؤمنين ما داموا يلزمون قانون التأويل .. وأصول الإيمان ثلاثة ، هي :

الإيمان بالله ، وبرسوله ، وباليوم الآخر ، وما عداه فروع .. ولا تكفير
 فى الفروع أصلاً ، إلا فى مسألة واحدة وهى أن ينكر أصلاً ديننا علم من
 الرسول ﷺ بالتواتر .. فالتكفير فيه خطر ، والسكوت لا خطر فيه ..
 والخطأ فى نزل ألف كافر فى الحياة أهون من الخطأ فى سفك مخجمة —
 [مصّة] — من دم مسلم .. والمبادرة إلى التكفير إنما تغلب على من
 يغلب عليهم الجهل .. وأكثر الخاضعين فى هذا التكفير إنما يحركهم
 التعصب واتباع الهوى دون النظر للدين .. والعصمة للدم مستفادة من
 قول لا إله إلا الله قطعاً ، فلا يُدفع ذلك إلا بدليل قاطع .. (١) .

بعد أن كنا نقرأ هذا الكلام انفيس لحجة الإسلام الغزالي .. ونقرأ —
 كذلك — للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ — ١٣٢٣ هـ — ١٨٤٩
 — ١٩٠٥ م] قوله :

“ أصل من أصول الأحكام فى الإسلام : البعد عن التكفير .. ولقد
 اشتهر بين المسلمين وعُرف من قواعد دينهم أنه إذا صدر قول من قائل
 يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد ، حُمِلَ على
 الإيمان ، ولا يجوز حملة على الكفر ” (٢) .

بعد أن كنا نقرأ ذلك .. ونقف عند حدوده .. أصبح التكفير مادة من
 مواد الإعلام الجمهورى التى تشيع هذه ‘ الفاحشة الفكرية ‘ بين ملايين

(١) الغزالي [الاقتصاد فى الاعتقاد] ص ١٤٣ ، ١٤٤ . طبعة القاهرة — مكتبة صبيح
 — بدون تاريخ .

(٢) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٣ ص ٣٠٢ . دراسة وتحقيق : محمد
 عمارة ، طبعة القاهرة — دار الشروق ١٩٩٣ م .

العوام .. حتى لقد تحولت بعض المنابر الإعلامية والمواقع على الشبكة العالمية للمعلومات إلى آليات لإشاعة الريب والشكوك وزعزعة اليقين والطمأنينة لدى كثير من الناس .. ومن ثم وسيلة لإشاعة المزيد من التمزق والافتراق بين صفوف الأمة ، وجعل بأسها بينها شديدا ، الأمر الذي يوهن من بأسها في مواجهة الأعداء .. وذلك على العكس من الصورة التي كانت لهذه الأمة في صدر الإسلام : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ (١) .

.. ﴿ وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾ (٢) .

* وإذا كان الاختلاف سنة من سنن الله — في كل عوالم الخلق .. ومبادئ الفكر — فإن اتفاق الأمة واجتماعها على الجوامع الخمسة المكونة للأرض المشتركة بين شعوبها وأجناسها وقومياتها وأوطانها ومذاهبها — وهي جوامع وحدة :

- ١- العقيدة ..
- ٢- والتشريعة ..
- ٣- والحضارة ..
- ٤- والأمة ..
- ٥- ودار الإسلام ..

(١) الفتح : ٢٩ .

(٢) الأنفال : ٦٣ .

هو الشرط لجعل الاختلاف - في الفروع ، كالفقه والسياسة مثلا - ظاهرة صحية ، تفتح أبواب السعة والرحمة والتيسير لجمهور المسلمين ..
أما الخلاف في الأصول - وخاصة في أصول الاعتقاد - فإنه هو الذي يفقد الأمة أساس وحدتها ، ويجعل تفرقها شيعا في أصول الدين والاعتقاد ..

وإذا نحن شئنا أن تضرب أمثلة على فاحشة الفكر التكفيرى ، الذى تغذ به تيارات فكرية .. ومذاهب كلامية .. وطرق صوفية إلى صفحات منابرها الإعلامية ومواقعها على الشبكة العالمية للمعلومات .. ونشيعه بين جماهير لا علاقة لأغليبيتها المساحقة بموضوعات العقائد ومباحثها .. فإتينا واجدون الكثير .. والتحذير .. والشر المستطير ! ..

وعلى سبيل المثال :

التكفير الصوفي للوهابية

"فالطريقة العزمية" — وهي إحدى الطرق الصوفية الأكثر استقراراً .. والأبعد عن الخرافات .. والأقرب إلى التجديد .. والتي أسسها الإمام المجدد الشيخ محمد ماضي أبو العزائم [١٣٥٦ هـ — ١٩٣٧ م] — .. هذه "الطريقة" قد احترفت — في الكثير من منابر إعلامها وثقافتها — مع الأسف الشديد — قذف السلفيين — وخاصة شيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١ هـ — ٧٢٨ هـ — ١٢٦٣ — ١٣٢٨ م] والشيخ محمد بن عبد الوهاب [١١١٥ هـ — ١٢٠٦ هـ — ١٧٠٣ — ١٧٩٢ م] — والوهابية — بأشنع الاتهامات .. بما في ذلك التكفير والإخراج من ملة الإسلام ! ..

ففي رُءسهم — مثلاً — أن عقائد الوهابية :

- * "عقائد غنوصية وهندوسية"
- * "وهي مذهب إرهابي .. وتيار إلحادي خطير"
- * "وهذا الوباء الوهابي لابد من اجتثاث تجربة الخبيثة"
- * "وهذه الطائفة المقلدة لمحمد بن عبد الوهاب مجسمة مكفرة"
- * "وهم مبتدعة خراصون .." (١) .

(١) انظر هذه الأحكام — وأمثالها — في كتاب [حطرت تقسيم التوحيد على عقائد المسلمين] ص ٣٦، ١٦، ١٧، ١٥ طبعة القاهرة ١٤٢٦ هـ — ٢٠٠٥ م .. وهو كتاب صدر ضمن سلسلة كتب شهرية — صدر منها الآن أكثر من عشرين كتاباً — وجميعها موضوعة على شبكة الإنترنت .

أما شيخ الإسلام ابن تيمية - والذي يعده علماء مدرسة الإحياء والتجديد في عصرنا الحديث من أبرز مجددى الإسلام - فإنه - بنظر " الطريقة العزمية " - وعلى صفحات إعلامها :

* " المقتدى بأسلافه كلاب النار الحروريين - [الخوارج] - ... والذين كفروا كثيرا من الصحابة .. وذلك عند ما حمل الآيات الواردة في الكفار على المؤمنين " .

* " وبضاعته - من السب والقذف والتكفير - هي بضاعة سفلة الناس " .
* " وهو جاهل بأصول الدين جهلا مركبا .. وقد حكم على نفسه بالشرك وعبادة غير الله وهو لا يشعر ، فصدق عليه المثل العربى : (رمتى بدلتها وانسلت) .. " .

* " وهو مكذب لنصوص كتاب الله تعالى وصريح سنة نبيه ﷺ .. ومركب بذلك جرما عظيما .. وصاحب حكم فاجر .. وملبس وكذاب وجبان .. وجاهل باللغة العربية وبأصول الدين .. " .

* " وهو الذى استبدل عقيدة التثليث بعقيدة التوحيد عندما اخترع (توحيد الألوهية) فشاق به رسول الله ، والتبع فيه غير سبيل المؤمنين ، زيادة على افتراءه على الله فى كتابه العزيز .. لقد حاول ابن تيمية جاهدا أن يدخل عقيدة التثليث فى عقيدة المسلمين ، فلما عجز عن ذلك اكتفى بتقسيم التوحيد إلى قسمين هما توحيد الألوهية (الأب) وتوحيد الربوبية (الابن) .. ولقد اختار ابن تيمية فى كيفية إدخال التثليث فى عقيدة المسلمين فلم يتمكن إلا من إدخال (الأب والابن) .. وجاء محمد بن عبد الوهاب - فى القرن الثانى عشر الهجرى .. بإيعاز من ابن تيمية - بما عجز عنه ابن تيمية ،

ورسخ عقيدة التثليث بإضافة توحيد الأسماء والصفات (الروح القدس) ..
 ١٠ أن نؤرخ لدخول التثليث في عقيدة بعض المسلمين ، فلن
 نكتفي بالقرن الثاني عشر الهجري ، الذي ظهر فيه
 ابن عبد الوهاب ..

* والمقصود من إدخال عقيدة التثليث في عقيدة المسلمين هو : مساواة
 المسلمين الموحدين بغيرهم من الأمم الوثنية والنصرانية ، مع التأكيد على
 أن الأمة الإسلامية مشركة ما عدا ابن عبد الوهاب وأتباعه دعاء
 التثليث .. (١) .. " ولذلك ، فعلى الأمة أن تنتبه إلى هذا الوباء الرهيب ..
 الذي هو السبب فيما وصلت إليه الأمة من هوان .. وتجتث هذه الشجرة
 الخبيثة من فوق الأرض حتى لا يبقى لها قرار .. " (٢) .

* " لقد سن ابن تيمية للوهابية - وهو جاهل بالدليل وبأصول الفقه
 جهلاً مركباً ، كما هو جاهل باللغة وبأصول الدين - سن للوهابية انتفاك
 حرمة النبي ﷺ .. ولذلك استحق أن يوصف بالخبيث .. المكابر .. ناقص
 العقل .. الذي في قلبه مرض الزيف المتبع ما شابه من الكتاب والسنة

(١) المراجع السابق ، ص ١٦٠ ، ١٦٦ ، ١٤٤ ، ٦٧ ، ٧٢ ، ٨١ ، ٨٤ ، ١٠٠ ، ٩٠ ، ١٤٧ ، ١٤٤
 وانظر كذلك - كتاب إلهاف اللبس والشرائع السماوية | - في ذات السلسلة - ص ١١٠ .
 ١ ، ١٢٠ ، ١٢٨ ، ١٢ ، طبعة القاهرة ٢٠٠٥ م .

(٢) انظر : في ذات السلسلة من الكتب - كتاب [لجوا من أهل المعية] ص ١٢ طبعة
 القاهرة سنة ٢٠٠٥ م .

ابتغاء الفتنة .. والمكذب لرب العالمين .. والخارج من الدين . والمذدري بأصفيائه المنتخبين وخلفائهم الراشدين وأتباعهم الموفقين!!^(١) .

تلك نماذج - مجرد نماذج - من "الفحش الفكري" الذي قدمته - وتقدمه - سلسلة من الكتب الجمهورية ، التي تصدر شهريا .. والتي صدر منها - عند كتابة هذه الدراسة - أكثر من عشرين كتابا !! والتي توضع على موقع " الطريقة العزمية " على الشبكة العالمية للمعلومات !! .. لتقدم " الفتنة الفكرية " لعامة المسلمين .. ولتقدم لأعداء الإسلام مادة غزيرة وخطيرة في حربهم على الوهابية التي وضعها الأمريكان ويضعونها - بعد قارعة " سبتمبر ٢٠٠١ م - في مستوى الشيوعية .. ويسمونها الفاشية الإسلامية !! ويشنون عليها أشرس الحملات والتهجمات !! ..

لقد طلب مجمع البحوث الإسلامية " بالأزهر الشريف - منع هذه الكتب من التداول ، درءاً للفتنة بين المسلمين .. لكن الشبكة العالمية للمعلومات قد أتاحت - وبتيح - الاطلاع عليها لجمهور أوسع وأعرض من جمهور القراء للكتاب ! ..

(١) المرجع السابق ، ص ٣٧ ، ١٣٧ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٧ .

التكفير الوهابى للشيعة .. والصوفية .. والأشعرية

ولم تكن السلفية الوهابية - التى تعرضت وتعرض للتكفير من قبل بعض الصوفية .. ومن قبل الشيعة - .. لم تكن أقل حظا من خصوصها فى تبادل تهمة التكفير .. والتقاذف بها .. سواء كان ذلك فى كتبها الجمهورية أو على مواقعها على الشبكة العالمية للمعلومات .. ففى كل منابر الإعلام هذه نجد شيوع هذه " الفاحشة الفكرية " - تهمة التكفير .. * فالصوفية - ينظر هذه السلفية الوهابية - هم : " مشركو العصور المتأخرة .. وهم أشد كفرا من كفار قريش .. ذلك أن كفار قريش كانوا إذا ضاقت بهم الحيل ، و علموا عجز آلهتهم عن تحقيق مرادهم ، فزعموا إلى الله تعالى ، أما هؤلاء الصوفية - كفار الأزمنة المتأخرة - فشركيهم بإلههم يزداد فى المصائب والمحن ، فيفزعون إلى آلهتهم : إلى القبور والأولياء ، وينادونها بالغوث والمدد والأخذ باليد .. فهم أشد كفرا من أبى جهل وأبى لهب .. " !!

* " وأتباع هذه الطرق الصوفية : ملاحدة .. وزنادقة .. وقيوريون .. ومنحرفون .. وأمرهم واضح فى الضلال والبعد عن الصراط السوى " !!

* " والفقه والتصوف لا يجتمعان .. ومن كان فقيها صالح الحال ، ثم تصوف ، فإنه ينقلب إلى الأسوأ .. وذلك لأن التصوف هو الأخطبوط والسرطان الفتاك .. والبلاء المالحق .. الذى تشيع فيه التعاليم الوثنية ، وعلى رأسها عقيدة الاتحاد والحلول ووحدة الوجود " .

* " والصوفية : ردة جاهلية .. ونتاج وشئ صريح جاء من الهند أو من فارس .. وأصحاب هذه الردة الجاهلية إنما يعبدون الأضرحة والأولياء " .

* هكذا .. وبهذه الأحكام التكفيرية - ومثلها كثير - طُفحت صفحات المواقع السلفية الوهابية على الشبكة العالمية للمعلومات - حول التصوف والمتصوفين 1.. .

* * *

كذلك تكفر هذه السلفية الوهابية كل مذاهب الشيعة وفرقها :
" فمذهبهم هو مذهب الضلال .. وأعمالهم شركية ، كالاستغاثة بعلى والحسين - رضى الله عنهما - "

* " كما تجتهد هذه السلفية الوهابية فى استخراج " الفواحش الفكرية الشيعية " ، التى تحكم بالكفر والردة واللعن على صحابة رسول الله ﷺ وعلى جمهور أهل السنة .. استخراج هذه " الفواحش الفكرية " من بطون الكتب التراثية للشيعة ، لتعيد نشرها وإشاعتها بين العامة والجمهور !! ..

* * *

بل ولا تنسى هذه السلفية الوهابية أن تعمم " فواحشها الفكرية : على
الأشعرية - الذين يمثلون ٩٩% من جمهور أهل السنة والجماعة " -
وذلك عندما تحكم على عقيدتهم .

" بالفساد .. والتبذير .. والتفسيق " وأحيانا " بالتكفير .. أو ما يشبهه
التكفير " !! ..

وتنتشر ذلك " الفحش الفكرى " على صفحات مواقعها بالشبكة العالمية
للمعلومات " .

وهكذا تحولت الكتب الجمهورية ، ومواقع الإنترنت - عند هذه
السلفية الوهابية - إلى ساحة يتقاذفون فيها مع خصومهم هذه " الفواحش
الفكرية " ، التي تمزق وحدة الأمة الإسلامية .. وتوهن عزيمتها
ومنعتها في مواجهة أعدائها - الذين تجاوزوا خلافاتهم التاريخية ..
وتناقضاتهم الدينية .. وتحالفوا جميعا لاجتياح عالم الإسلام وأمة الإسلام
ودين الإسلام !! ..

النزعة التكفيرية عند الشيعة

وإذا كانت الشيعة — بفرقها المختلفة : المعتدلون منهم — كالزيدية — والمتوسطون منهم — كالإثنى عشرية — .. والغلاة منهم — كالإسماعيلية والنصيرية .. والدروز — إنما يمثلون أقل من ١٠% من تعداد المسلمين .. بينما يمثل أهل السنة والجماعة ٩٠% من تعداد الأمة .. فإن وقوع الشيعة في مستنقع التكفير لأهل السنة قد شمل جمهورهم — باستثناء الزيدية — .. بينما لم يقع في مستنقع التكفير للشيعة — من أهل السنة — سوى قطاع من السلفيين ، لا يتجاوز عددهم الملايين التي تعد على أصابع اليدين .

بل إن تراث الشيعة ، في المصادر المعتمدة ، التي تدرس حتى اليوم في الحوزات العلمية ، والتي تكون العقل الفقهي للمراجع الشيعية الذين يقودون جماهير المقلدين .. إنما يعم — هذا التراث — " فاحشة التكفير " لتشمل جمهور صحابة رسول الله ﷺ وأزواجه .. أي أنهم يعممون هذه " الفاحشة " على جمهور الأمة ، بأجيالها المتتابعة ، منذ صدر الإسلام وحتى هذه اللحظات !!

* لقد طفحت " الأحاديث " التي نسبوها إلى أئمتهم ، وامتلأت مصادرهم في العقائد .. وأصول الدين .. والتفسير للقرآن الكريم .. وكتب

الرجال .. والتاريخ .. بالروايات التي تعمم فاحشة التكفير والارتداد واللعن
لجمهور الصحابة - رضوان الله عليهم - وجمهور أمة الإسلام .
ووضعت هذه " الفواحش الفكرية " على العديد من المواقع على
الشبكة العالمية للمعلومات .. سواء من قبل متعصبى الشيعة ، أو من قبل
خصومهم السلفيين !!

ومن هذه " الفواحش الفكرية التكفيرية " - على سبيل المثال - :
* الحكم بالكفر والردة على أبى بكر الصديق .. وعمر الفاروق ..
وعثمان ذى التورين - رضى الله عنهم - .. فلقد جاء فى (الأصول من
الكافى) للكلينى (٣٢٩هـ / ٩٤١م) (١) :
" عن أبى عبد الله - جعفر الصادق - أن الآية « إن الذين كفروا
بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا » (٢) . قد نزلت فى أبى بكر ، وعمر ،
وعثمان ، وكذلك آية : « إن الذين ارتدوا على أديبارهم من بعد ما تبين
لهم » (٣) . وأنهم (آمنوا بالنبي فى أول الأمر ، وكفروا حين عرضت
عليهم ولاية على بن أبى طالب .. وأنهم ارتدوا عن الإيمان فى ترك ولاية
على) !! (٤) .

(١) هذا الكتاب - عند الشيعة الإثنى عشرية - بمثابة (صحيح البخارى) عند أهل
السنة .. والكلينى هو أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكلينى الرازى - المتوفى
سنة ٣٢٩هـ .

(٢) آل عمران : ٩٠ .

(٣) محمد : ٢٥ .

(٤) (الكافى) ج ١ ، ص ٤٢٠ . طبعة دار الكتب الإسلامية ، بيروت .

* كما ينسب الكليني - في (الروضة من الكافي) - إلى أبي عبد الله - جعفر الصادق - في تفسير الآية : « ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين » (١) . أنهما أبو بكر وعمر !! (٢) .

* أما المجلسي - محمد باقر - صاحب (مرآة العقول) - فإنه يقول في شرحه للكافي ، ورواية الكليني هذه - ج ٢٦ ، ص ٤٨٨ :
 " إن الجن المذكور في الآية هو عمر بن الخطاب ، سمى بذلك لأنه كان شيطاناً ، إما لأنه كان شرك شيطان لكونه ولد زنى ، أو لأنه في المكر والخديعة كالشيطان " !!

* وينسب الكليني إلى أبي عبد الله - جعفر الصادق - : أن هؤلاء الخلفاء الثلاثة - أبو بكر وعمر وعثمان . (لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب عظيم) !! (٣) .

* ويقول المجلسي في (العقائد) ص ٥٨ :
 " إن مما عُدَّ من ضروريات دين الشيعة الإمامية : البراءة من أبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية " ، كما يصفهم - في كتابه (حق اليقين) ص ٥١٩ - بأنهم " الأصنام الأربعة " !! .. وأنهم وأتباعهم وأشياعهم " شر خلق الله على وجه الأرض " !!

(١) فصلت : ٢٩ .

(٢) الكليني (الروضة من الكافي) ج ٨ ، ص ٣٣٤ .

(٣) (الكافي) ج ١ ، ص ٣٧٣ .

كما يروى — في كتابه (بحار الأنوار) ج ٢٩ ، ص ١٣٧ — عن
مولى لعلى بن الحسين ، قوله في أبي بكر وعمر : أنهما * كافران ، كافر
من أحبهما * !! ..

* أما التركي — في كتابه (نفحات اللاهوت في لعن الجبت
والطاغوت) ص ١٤٠ — فيقول عن عثمان بن عفان رضي الله عنه : " إن من لم يجد
في قلبه عداوة لعثمان ، ولم يستحل عرضه ، ولم يعتقد كفره ، فهو عبو لله
ورسوله ، كافر بما أنزل الله * !!

* بل لقد استحب الشيعة الإمامية — وبعضهم أوجب * — لعن أبي بكر
وعمر وعثمان ومعاوية .. ولعن عائشة وحفصة .. وعند — زوج
أبي سفيان — وأم الحكم — أخت معاوية — .. لعنهم بأسمائهم عقب
كل صلاة !!

وذكر الحر العاملي — في كتابه (وسائل الشيعة) ج ٢ ، ص ١٠٣٧
بأياً عنوانه : (استحباب لعن أعداء الدين عقوب الصلاة بأسمائهم) ..
ونسب ذلك إلى أبي عبد الله — جعفر الصادق — زاعماً أنه * كان يلعن
دير كل مكتوبة أربعة من الرجال وأربعاً من النساء * !!

* وذكر المرعشي — في كتابه (إخفاق الحق) ج ١ ، ص ٩٧ ،
وصف أبي بكر وعمر ' بصنمي قريش ' .. وأثبت نص الدعاء عليهما !!
وهو نص طويل ، تطبعه وتذيعه نواثر شيعية .. وتضعه على مواقع
الإنترنت .. فتشيع ما فيه من الفواحش الفكرية بين العامة ، مسلمين وغير

(١) لابن المطهر الحلي كتاب (الألفين) يورد فيه ألفي دليل على وجوب لعن أبي بكر
وعمر — رضي الله عنهما وأرضاهما — !! ..

مسلمين !! .. وتنافسها في إشاعة هذا " ادعاء " السلفية الوهابية ، لتفضح الشيعة بين الناس !!

* وعلى الرغم من أن الإمام عليّ بن أبي طالب — كرم الله وجهه — قد شهد بالإيمان والأخوة في الدين حتى للذين حاربوه وقتلوه ، لأن الخلاف والقتال إنما كان في السياسة والخلافة — وهي من الفروع ، التي يجوز حتى المخطئ فيها .. ولم يكن الخلاف في أصول الاعتقاد الذي فقال كرم الله وجهه عندما سئل عن رأيه في أهل الشام — معاوية ابن أبي سفيان وأنصاره — إبان قمة الصراع بينهما في موقعة " صفين " (٢٧هـ/٦٥٧م) :

" لقد اتقينا ، وربنا واحد ، وديننا واحد ، ودعوتنا في الإسلام واحدة ، ولا نستزيدهم في الإيمان بالله والتصديق برسوله ولا يستزيدونا ، والأمر واحد ، إلا ما اختلفنا فيه من دم عثمان ، ونحن منه براء ..
إننا — والله — ما قاتلنا أهل الشام على ما توهم هؤلاء — (الخوارج) من التكفير والافتراق في الدين ، وما قاتلناهم إلا لنردهم إلى الجماعة — (أي الجماعة السياسية) — وإلهم لإخواننا في الدين ، قبلتنا واحدة ، وربنا أننا على الحق دونهم " (١) .

(١) الباقلائي : (التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة) ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، تحقيق : محمود الخضيرى ، ٥١ ، محمد عبد الهادي أبو ريدة . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٤٧م ، وابن أبي الحديد : (شرح نهج البلاغة) ج ١٧ ، ص ١٤١ . تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبعة القاهرة ، سنة ١٩٥٩م .

على الرغم من ذلك ، ينقل الشيخ المفيد - في كتابه (أوائل المقالات) ص ٤٥ - اتفاق الإمامية - على تكفير الذين قاتلوا علياً .. ويصفهم " بالناكثين والقاسطين والكفار والضلال الملعونين المخلدين في النار " !!

* ويحكم شيخ الشيعة جعفر مرتضى - في كتابه (حديث الإفك) ص ١٧ على أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - بالكفر !!

ويقول عنها يوسف البحراني - في كتابه (الشهاب الثاقب في بيان معنى المناصب) ص ٢٣٦ : " إنها ارتدت بعد موت النبي ﷺ كما ارتد ذلك الحجم الغفير المجزوم بإيمانهم سابقاً .. وأنها مستحقة للنار واللعن والعذاب ، وأن ذلك من مستلزم مذهب الشيعة وأحقية أئمتهم الإثني عشر " !!

أما النجفي القمي - محمد طاهر بن محمد حسين الشيرازي النجفي القمي - المتوفى سنة ١٠٩٨م - فيقول عن السيدة عائشة - رضى الله عنها - في كتابه (الأربعين في إمامة الأئمة الطاهرين) ص ٦١٥ ، ٦١٦ : " ومما يدل على إمامة أئمتنا الإثني عشر ، أن عائشة كافرة مستحقة للنار ، وهو مستلزم لحقية مذهبنا وحقية أئمتنا الإثني عشر ، لأن كل من قال بخلافة الثلاثة - (أبي بكر ، وعمر ، وعثمان) - اعتقد إيمانها وتعظيمها وتكريمها ، وكل من قال بإمامة الإثني عشر . قال باستحقاقها اللعن والعذاب " !!

* ولقد ذهب كبار علماء الشيعة الإثني عشرية إلى تعميم الحكم بالكفر والشرك على كل من عداهم .. فالمجلسي - في كتابه (بحار الأنوار) ج ٢٣ ص ٣٩٠ - يقول :

* اعلم أن إطلاق لفظ الشرك والكفر على من لم يعتقد إمامة أمير المؤمنين والأئمة من ولده .. يدل على أنهم مخلدون في النار !
ويؤكد على ذلك شيخهم عبد الله المامقاني - في كتابه (تنقيح المقال)
جـ ١ ص ٢٠٨ - فيقول :

" وغاية ما يستفاد من الأخبار جريان حكم الكافر والمشرك في الآخرة على كل من لم يكن اثني عشرياً ! "

* وحتى الخميني - في كتابه (الأربعين) ص ٥١١-٥١٣ ، يجعل قبول الإيمان بالله ورسوله مقصوراً على الشيعة المؤمنين بالأئمة الإثني عشر دون عداهم !

وكذلك الحال - عنده في قبول الأعمال .. فلقد عقد في هذا الكتاب فصلاً - ص ٥١٢ - جعل عنوانه : (فصل في بيان أن ولاية أهل البيت شرط لقبول الأعمال) !! .. فكان الاختلاف معهم حول أي من أئمتهم الإثني عشر شرك محبط للإيمان .. ومحبط للأعمال الصالحات !! ..

* بل وبلغ بهم الأمر حد إعلان أن المفارقة بينهم وبين سائر من عداهم إنما تشمل المفارقة في الألوهية والنبوة !! .. فنكر شيخهم نعمة الله الجزائري - المتوفى سنة ١٢١٢ هـ - في كتابه (الأنوار النعمانية)
جـ ٢ ، ص ٢٧٩ (١) :

" إننا لم نجتمع معهم على إله ، ولا نبي ، ولا على إمام ، وذلك أنهم يقولون : إن ربهم هو الذي كان محمداً نبياً ، وخليفته أبو بكر ، ونحن

(١) طبعة مؤسسة الأعلى - بيروت .

لا نقول بهذا الرب ولا بذلك النبي ، بل نقول : إن الرب الذي خليفته أبو بكر ليس ربنا ، ولا ذلك النبي نبينا * !! ..

* ويروى الكليني هذا الحكم القاطع بكفر كل من عدا الشيعة

الإثنى عشرية .. يرويه - في (الكافي) ج ١ ، ص ٢٢٣ - عن الرضا ، الذي يقول :

” إن شيعتنا لمكتوبون بأسمائهم وأسماء آبائهم ، أخذ الله علينا وعليهم

الميثاق ، يردون موردنا ويدخلون مدخلنا ، ليس على ملة الإسلام غيرنا وغيرهم إلى يوم القيامة ” !!

* وإذا كانوا يطلقون على كل من عدا فرقته - الإثنى عشرية -

صفة ”النواصب” - أي الذين ناصبوا أئمتهم العداء - .. فإن ”الناصبي”

عندهم - كما يقول نعمة الله الجزائري - في كتابه (الأنوار النعمانية)

ج ٢ ، ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ - : ” نجس ، وأنه شر من اليهودي والنصراني

والمجوسي ، وأنه كافر نجس بإجماع علماء الإمامية ” !!

وبعبارة شيخهم الكبير ومرجعهم محمد الشيرازي - في موسوعته

(الفقه) ج ٤ ، ص ٢٦٩ :

” فإن من جحد إماماً من الأئمة الإثنى عشر - بمن في ذلك سائر

أقسام الشيعة غير الإثنى عشرية - هم ” كمن قال إن الله ثالث ثلاثة ” !!

” وحتى الإمام أبو القاسم الخوئي - وهو الذي توفي من سنوات

قليلة - فإنه يقول - في كتابه (مصباح الفقاهة) ج ٢ ، ص ١١ :

” إنه ثبت بالروايات والأدعية والزيارات جواز لعن المخالفين ،

وجوب البراءة منهم ، وإكثار السب عليهم ، واتهامهم ، والتوقيعة فيهم

— أى غيبتهم — لأنهم من أهل البدع والريب ، بل لا شبهة فى كفرهم ،
لأن إنكار الولاية والأئمة حتى الواحد منهم والاعتقاد بخلافه غيرهم ..
يوجب الكفر والزندقة ، وتدل عليه الأخبار المتواترة الظاهرة فى كفر
منكر الولاية * !!

* وإذا كان جمهور أهل السنة ، هم — فى العقائد — على المذهب
الأشعرى — نسبة إلى إمام أهل السنة والجماعة أبو الحسن الأشعرى
(٢٦٠-٣٢٤هـ/٨٧٤-١٩٣٦م) — فإن الأشعرية — بنظر الشيعة الإثنى
عشرية — كفار ، بل وأسوأ من المشركين والنصارى ! .. وبعبارة الشيخ
نعمة الله الجزائرى — فى كتابه (الأنوار النعمانية) ج٢ ، ص٢٧٨ — :
" فالأشاعرة لم يعرفوا ربهم بوجه صحيح ، بل عرفوه بوجه غير
صحيح ، فلا فرق بين معرفتهم هذه وبين معرفة باقى الكفار .. فالأشاعرة
ومتابعوهم أسوأ حالاً فى باب معرفة الصانع من المشركين والنصارى ..
ولقد تبأينا وانفصلنا عنهم فى باب الربوبية ، فربنا من تفرد بالقدم والأزل ،
وربهم من كان شركاؤه فى القدم ثمانية " !!

* بل لقد صعد بعض علماء الشيعة بالمفارقة والعداء والتكفير
من نطاق أصول الاعتقاد إلى نطاق " العنصرية " أيضاً .. فذكر
الشيخ المفيد — فى كتابه (الأمالى) ص١٦٩ — :
" أنه ليس أحد طاهر المولد ، وليس أحد على ملة الإسلام
إلا الشيعة " !! ..

* * *

هذه نماذج وأمثلة — مجرد نماذج وأمثلة — لهذا " الفحش الفكرى " ،
الذى أثمره التعصب الطائفى والضلال المذهبى ضد جمهور أمة الإسلام ،
الذين يعبدون الله وحده .. ويؤمنون بنبوة خاتم الأنبياء والمرسلين — محمد
بن عبد الله ﷺ — ويحبون آل بيته ، الذين أذهب الله عنهم الرجس
وطهرهم تطهيراً — بنص القرآن الكريم : ﴿ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ
الرَّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ (١) .

• • •

وإذا كان هذا " الفحش الفكرى " قد ظل لقرون طويلة وقفناً على
التدريس فى الحوزات العلمية الشيعية .. وعلى الباحثين فى أصول المذهب
الشيعى وعقائده .. وتخفيه " التقية " فى أغلب الأحيان عن الثقافة العامة
للشيعية .. فإن ثورة وسائل الاتصال الحديثة — بما فى ذلك " مواقع "
الشبكة العالمية للمعلومات — قد أشاعت هذا " الفحش الفكرى " بين العامة
والجمهور ، فأشعلت نيران الفتنة بين جماهير الأمة ، فى وقت تجتاح فيه
" الصليبية — الصهيونية " أمة الإسلام وعالمه وحضارته ، دون تمييز
بين الطوائف والمذاهب والأقطار والقوميات فى عالم الإسلام ! ..

بل إن المفارقات الغربية قد جعلت نقرأ من السلفيين — فى حربهم
ضد الشيعة .. ومحاولتهم فضح نزعتهم التكفيرية — يسهمون فى إشاعة
هذا " الفحش الفكرى " ، وذلك عندما ينقلونه من بطون الكتب التراثية

(١) الأحزاب : ٣٣ .

المتخصصة إلى الكتب الجمهورية ، ومواقع الشبكة العالمية للمعلومات !! (١) .

الأمر الذى يستدعى وقفة جادة تواجه بها هذا الخطر الذى يشعل نيران التكفير فى صفوف الأمة .. وينشر لهيب هذه النيران بين العامة والجماهير .

إن المجتمع الشيعى — فى الحوزات والجامعات ومؤسسات البحث والدراسة — يزخر بالعقلاء من الفقهاء والعلماء .. ونحن — من موقع الحب والتقدير والإجلال — نتوجه إلى هؤلاء العلماء العقلاء .. فنقول لهم :

إن الذين أزالوا طاغوت الفرس والروم — قبل أربعة عشر قرناً — وفتحوا أبواب كل البلاد أمام الإسلام هم الصحابة ، الذين صنعوا هذا المعجزة التاريخية تحت قيادة أبى بكر الصديق (٥١ق.هـ — ١٣هـ/٥٧٣ — ٦٣٤م) والقاروق عمر بن الخطاب (٤٠ق.هـ — ٢٣هـ/٥٨٤ — ١٦٤٤م) .. أى أن هؤلاء هم السبب — الذى يصره الله — لوصول الإسلام إلينا وإلحكم .. ولولاهم فلربما كنتم تعبدون أنوار أو الصليبان أو العجل أبليس حتى هذه اللحظات !!

(١) انظر — على سبيل المثال — كتاب (الشيعة الإثنى عشرية وتكفيرهم لعموم المسلمين) تأليف عبد الله بن محمد السلفى . طبعة مكتبة الرضوان السلفية — كوم حمادة — البحيرة — مصر سنة ٢٠٠٤م .. وكذلك العديد من المواقع السلفية على شبكة الإنترنت .

فهل يجوز — في العقل والمنطق والحكمة — أن تكفر وتعلن من كان
السبب في نعمة الإسلام التي هي أعظم نعم الله علينا ؟!

* لقد لقيت في طهران — في أولى زيارتي لها — واحدا من نبيهاء
الشيعة ، الذين تجاوزوا — بالعقلانية والاستقامة — هذا التراث المظلم الذي
يمزق وحدة الأمة الإسلامية .. وحدثني — يومئذ — عن لون من الثقافة
الشيعية الشائعة في صفوف عوام الشيعة .. حدثني عن ذاته ، التي
تتقرب إلى الله — سبحانه وتعالى — عقب كل صلاة ، فتدعو — على
مسيحتها — فتقول : " اللهم العن أبا بكر ثم عمر " !!! ..

وإذا كنت قد شعرت بالحزن الشديد — يومئذ — لسبوع مثل هذا
" الفحش الفكري " بين العامة من الشيعة .. ولجعل هذا " الفحش الفكري "
دينا وقرينات تقترب بها البعض إلى الله — سبحانه وتعالى — ! فإن الحزن
الأشد قد أصابني عندما علمت أن هذا " الفحش الفكري " ليس مجرد
تعصب أعمى يمارسه العامة .. وإنما هو " فكر مذهبي " تنتقله المصادر
التراثية الشيعية التي تدرس في الحوزات العلمية ، وتتشكل به وتصطبغ
عقول الفقهاء والعلماء والمراجع التي يقرأها العوام .. بل وتطبعه
وتوزعه .. بالمجان — نور نشر ومكتبات .. ويضعه البعض — من
الشيعة أو من خصومهم — على مواقع الشبكة العالمية للمعلومات .. ليشيع
بين العامة والجماهير ! ..

* وها هو المرعشي — القاضي ضياء الدين نور الله التستري
(٩٥٦-١٠١٩هـ/١٥٤٩-١٦١٠م) يورد في كتابه (إحقاق الحق وريعي

الباطل) - ج ١ ، ص ٩٧ - دعاءهم على أبي بكر الصديق والفاروق
 عمر بن الخطاب ، الذي يزعمون أنهم يقتربون به إلى الله ! .. ونصه :
 ' بسم الله الرحمن الرحيم ، اللهم صل على محمد وآل محمد . اللهم
 لعن صنمى قریش وجبنیہما وطاغوتیہما ، وإفکیہما وابنتیہما ^(١) . الذین
 خالفوا أمرک . وأنکرا وحیک ، وجحدوا إنعامک ، وعصوا رسولک ، وقبلا
 بیک ، وحرقا کتابک ، وعطلا أحکامک ، وأبطلوا فرائضک ، وأحدوا فی
 آياتک ، وعادوا أولیاءک ، ووالوا أعداءک ، وخربا بلادک . وأفسدا عبادک .
 اللهم العنہما ، وأتباعہما وأولیاءہما ، وأشیاعہما ، ومحبیہما ^(٢) .
 فقد خربا بیت النبوة ، وردما بابہ ، ونفضا سقاه ، وألحقا سماءہ بأرضہ
 وعالیہ بسافلہ وظاہرہ بباطنہ ، واستأصلا أہلہ ، وأبادا أنصارہ . وقتلا
 أطفالہ ، وأخليا منیرہ من وصیہ ووارث علمہ ، وجحدوا إسمائہ ، وأشركا
 بربہما ، فعضم ذنبہما وخذلہما فی سقر ، وما أدراك ما سقر ، لا یبقی
 ولا تکر .

اللهم العنہم بعدد کل منکر أتوا ، وحق أخفوه ، ومنیر علوه ،
 ومؤمن أرجلوه ، ومنافق ولوه ، وولی أتوه ، وطريد آووه ، وصديق
 طردوه ، وكافر نصروه ، وإمام قهروه ، وفرض غيروه ، وأثر أنكروه ،
 وشر أتروه ، ودم أراقوه ، وخير بدتوه ، وحكم قلبوه ، وكفر أبدعوه ،
 وكذب دلسوه ، وإرث غصبوه ، وفی اقتطعوه ، وسحت أكلوه ، وخمس

(١) أى إسمات المؤمنین عائشة وحفصة - رضی الله عنہما - .

(٢) أى أن اللعن والدعاء ليس فقط على أبی بكر وعمر ، وإنما على جمیع الأئمة

الإسلامیة - ٩٠% من المسلمین - ١١ ..

استحلوه ، وباطل أسنوه ، وجور بسطوه ، وظلم نشره ، ووعد أخلفوه ،
وعهد نقضوه ، وحلال حرّموه ، وحرام حلّوه ، ونفاق أسروه ، وعذر
أضروه ، وبطن فتنوه ، وضلع كسروه (نقوه) ، وجنين أسقطوه ، وصك
مزقوه ، وشمل بدّوه ، وعزّيز أنزلوه ، وذليل أعزّوه ، وحقّ منعه ، وإمام
خالفوه .

اللهم العنهما بعدد كل آية حرّفوها ، وفريضة تركوها ، وسنة
غيّروها ، وأحكام عطّلوها ، ورسوم منعوها ، وأرحام قطعوها ، وشهادات
كتموها ، ووصية ضيّعوها ، وإيمان نكثوها ، ودعوى أبطلوها ، وبيّنة
أنكروها ، وحيلة أحدثوها ، وخيانة أوردوها ، وعقبة ارتقوها ، ودياب
دحرجوها ، وأزياف لزموها ، وأمانات خاتوها .

اللهم العنهما في مكنون السر ، وظاهر العلانية لعناً كثيراً دائماً أبداً
سرمداً لا انقطاع لأمداه ، ولا نفاذ لعدده ، لعنا يغدوا أوله ولا يروح
آخره ، لهم ولأعوانهم وأنصارهم ، ومحبيهم ومواليهم ، والمائلين إليهم ،
والناهضين بأجنتهم ، والمقتدين بكلامهم ، والمصدقين بأحكامهم .
(قل أربع مرات) : الله عذبهم عذاباً يستغيث منه أهل النار ، آمين
رب العالمين .

(ثم تقول أربع مرات) اللهم العنهم جميعاً .

اللهم صل على محمد وآل محمد ، وأغنني بحلالك عن حرامك ،
وأغنني من الفقر . ربّ إني أسأت وظلمت نفسي ، واعترفت بذنوبي ،
وها أنا بين يديك فخذ لنفسك رضاها . لك العتبي ، لا أعود ، فإن عذبت

فعد على بالمغفرة والعفو لك بفضلك وجودك ومغفرتك وكرمك يا أرحم
الرحمين .

وصل الله على سيد المرسلين وخاتم النبيين وآله الطيبين الطاهرين
برحمتك يا أرحم الرحمين " (١) .

فهل هذا — " الفحش الفكرى " — معقول ؟!

" وهل هذا يليق بمن يتحدثون عن وحدة الأمة الإسلامية فى مواجهة '
" الصليبية — الصهيونية " التى تعصف بكل ما هو إسلامى ، نون تميز
بين مذاهب المسلمين ؟!

وهل نظل — هكذا — عاجزين — ولا نقول راضين — أمام هذه
" الألغام المتفجرة " ، التى تستخدم صباح مساء فى كسر شوكة الوحدة
الإسلامية ؟!

إننا نتوجه بهذه التساؤلات إلى العلماء العقلاء الذين تمثلون
بهم فضاءات الشيعة وجامعاتها .. ولا تخلو منهم الحوزات العلمية
التي يتخرج منها هؤلاء العلماء ! ..

(١) (الشيعة الإثني عشرية وتكفيرهم لعموم المسلمين) ص ٤٣-٤٥ .

حقائق .. وأوهام

عندما قامت الثورة الإيرانية سنة ١٩٧٩م ، بقيادة آية الله الخميني — الذي حرك الجماهير الشعبية الإيرانية على نحو غير مسبوق في التاريخ الإيراني — .. بهزت هذه الثورة جماهير الأمة الإسلامية ، فتعاطفت معها ، ومنحتها التأييد والولاء ، على الرغم من الموقف المعادي لهذه الثورة من قبل الاستعمار والصهيونية والكثيرين من الحكام في وطن العروبة وعالم الإسلام .

واليوم ، يتكرر ذات المشهد — من التأييد الشعبي الإسلامي — إزاء الصمود البطولي الذي قام به المجاهدون من شباب " حزب الله " — الشيعي — في لبنان ، أولئك الذين لقنوا الجيش الصهيوني — ومن ورائه أمريكا — درساً سيكون له ما بعده في سجل الصراع التاريخي بين أمتنا الإسلامية وبين الصليبية الغربية ورببتها الصهيونية — إن شاء الله — ..

* وكما حدث بالأمس — عندما قامت الثورة الإيرانية سنة ١٩٧٩م — عندما حاول البعض ربط الثورة والثورية بالمذهب الشيعي ، وبثقافة الجهاد والاستشهاد لدى هذا المذهب ، للقيام بتحويل بعض الشباب عن المذهب السني إلى التشيع .. تتكرر ذات الأفكار وذات المحاولات ، لإقناع بعض الشباب ، المنبهر بأداء المقاومة الشيعية في لبنان بالتحول عن السنة إلى

الشيعة ، بدعوى الارتباط بين الثورية والروح الجهادية وبين الشيعة
كمذهب وثقافة واتجاه ..

* وللإجابة على التساؤلات التي طرحها ويطرحها بعض الشباب
حول هذا الموضوع — الهام والحماس — نقدم هذه الحقائق الفكرية
والتاريخية — بل والمعاصرة — التي ترسم الصورة الصادقة ، من جميع
جوانبها وزواياها ، أمام عقول الشباب .. وذلك إعانة لهم على التفكير
للموضوعي السليم .. وهي حقائق نقدمها في عدد من النقاط :

(١)

يجب أن نميز بين الإعجاب بالمقاومة التي تقوم بها حركات التحرر
الوطني والقومي والإسلامي ، وبين المذاهب والعقائد التي تعتقها هذه
الحركات .. فكل شعوب الدنيا — وعلى مر التاريخ .. ورغم تعدد دياناتها
ومذاهبها — قد خاضت غمار الثورات .. وكثيرون منها قد مارسوا
البطولات في مواجهة الغزاة والمستبدين .. ومن الخطأ البين أن يقدننا
الإعجاب بثورات هذه الشعوب وبطولاتها إلى الإعجاب بدياناتها وعقائدها
ومذاهبها ، فنتحول عن عقائدنا ومذاهبنا إلى هذه العقائد والمذاهب التي
تؤمن بها تلك الشعوب ..

* لقد انههر العالم كله ببطولات الجيش السوفييتي في معركة
" ستا لينجراد " ، التي فتحت الطريق أمام انهيار النازية والفاشية — في
الحرب العالمية الثانية — .. وذلك دون أن ينهز أحد بالعقيدة القتالية

للجيش الأحمر ، أو ينهر بماركسية قائد ذلك الجيش " جوزيف ستالين " (١٨٧٩-١٩٥٣م) !

* ولقد أيدنا جميعاً المقاومة الفيتنامية الباسلة ، وأعجبنا ببطولات الشعب الفيتنامي ضد الاستعمار الفرنسي والأمريكي .. لكننا لم نمنح هذا الإعجاب للبوذية الفيتنامية ، ولا لماركسية الحزب الشيوعي الفيتنامي ، الذي قاد هذا النضال وسطر تلك البطولات .. ومن ثم لم يتحول أحد منا إلى البوذية ولا إلى الشيوعية ! ..

* ولقد وقف أحرار العالم — من كل الديانات والمذاهب والفلسفات — مع المقاومة البطولية للشعب الفرنسي ضد الاحتلال النازي — إبان الحرب العالمية الثانية — وهي المقاومة التي قادها الشيوعيون الفرنسيون ، وانخرط فيها الوجوديون الفرنسيون .. وذلك دون أن يمتد هذا التأييد العالمي للشيوعية .. ولا للوجودية ، كمذاهب يعتقها هؤلاء المقاومون ! ..

* واليوم يمنح أحرار العالم إعجابهم وتقديرهم لتيارات اليسار في أمريكا الوسطى والجنوبية — من " كاسترو " — في كوبا — إلى " تشايفز " — في فنزويلا — .. هذا اليسار الذي يقاوم الطواغوت الإمبريالي الأمريكي وذلك دون أن يعني هذا أن نتحول إلى المذاهب اليسارية التي يتمذهب بها هؤلاء المقاومون ! ..

* بل ولقد سبق لجماعير عريضة من شباب العالم أن فتنت بالمقاومة الأسطورية " لجيفارا " .. لكنها لم تفتن " بالماركسية .. اللينينية .. الماوية " التي حركت هذا البطل الأسطوري " جيفارا " !

وهكذا يستبين لنا أن الربط العضوى والحتمى بين " المقاومة " وبين
" مذهب " أهلها .. ومن ثم الربط بين الإعجاب بهذه المقاومة وبين التحول
إلى مذاهب أهلها .. هو وهم كبير وخطير ، يروج له بعض الخبثاء فى
أوساط الذين لا يعلمون ولا يفقهون ! ..

(٢)

ثم .. من قال إن التشيع قد ارتبط — تاريخياً — بالثورة والمقاومة
لحكام الجور .. وأن أهل السنة قد كانوا مستسلمين ، أو أقل مقاومة — من
الشيعية عبر تاريخ الإسلام ١٩ ..

إن هذه المقولة — التى يروج لها الخبثاء فى صفوف الجهلاء — هى
الأخرى وهم من الأوهام .. بل ومضادة للحقائق الصلبة التى امتلأت بسها
صفحات التاريخ ..

* لقد فتح المسلمون الأوائل فى ثمانين عاماً أوسع مما فتح الرومان
فى ثمانية قرون .. وأزالوا القوى العظمى التى استعمرت الشرق وقهرته
— دينياً .. وثقافياً .. ولغوياً .. وحضارياً — لأكثر من عشرة قرون — من
الإسكندر الأكبر (٣٥٦—٣٢٤ ق.م) فى القرن الرابع قبل الميلاد — إلى
" هرقل " (٦١٠—٦٤١م) — فى القرن السابع للميلاد .

وبهذا الفتح الإسلامى المبين ، فتح هؤلاء الفاتحون الطريق أمام
انتشار الإسلام من المغرب — غرباً — إلى الصين — شرقاً — ومن حوض
نهر الفولجا — شمالاً — إلى جنوبى خط الاستواء ..

وحميع هؤلاء الفاتحين — من الخلفاء والصحابه والمجاهدين —
يؤولاهم أهل السنة ، ويصلون ويسلمون عليهم ، ويعتبرونهم الأئمة والقادة
الذين أنقاسوا الدين ونشروه ، وأسسوا الدولة ومدوا لها الحدود .. وأنتم
الله على أيديهم هذه النعمة التي نعيش فيها وعليها حتى يومنا هذا .. بل
وكانوا هم المؤسسين لقواعد الحضارة الإسلامية التي أنارت العالمين ..
بينما الشيعة — باستثناء الزيدية — قد حرموا أنفسهم — مع شديد
الأسف — من هذا الرصيد التاريخي المجيد ، وذلك عندما حكموا على
جمهور هذا الجيل الفريد — من الصحابة — بالكفر والردة .. بل وأوجبوا
لعنهم والبراءة منهم — والعياذ بالله — ! ..

لذلك ، كانت هذه الفتوحات وهذه البطولات ، التي لولاهما لما دخلت
شعوبنا في دين الإسلام ، كانت رصيذاً للتاريخ السنى فى ميادين الفتوحات
والبطولات والتحرير للأرض وللضمير .. ولا أثر لها فى تاريخ الشيعة
والشييع — مع الأسف الشديد — ! ..

(٣)

وعندما جاء الغرب الصليبي ليختطف الشرق من التحرير الإسلامى
— إبان الحروب الصليبية (٤٨٩—٦٩٠هـ / ١٠٩٦—١٢٩١م) — رأيناه
يغتصب القدس وفلسطين والشام من الدولة الفاطمية الشيعية — التي كانت
عقيدتها الباطنية بداية الانحطاط فى التاريخ الإسلامى — كما يقول

جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤-١٣١٤هـ/١٨٣٨-١٨٩٧م) ^(١) . ووجدنا
— على العكس من ذلك — دول الفروسية الإسلامية السنية — وخاصة
الأيوبيّة (٥٦٧-٦٤٨هـ/—/١١٧١-١٢٥٠م) والمملوكيّة
(٦٤٨-٩٢٢هـ/١٢٥٠-١٥١٧م) — هي التي جاهدت وحاربت حتى
استعادت الشرق وحررت مقدسات الإسلام من الصليبيين .

وإذا كان صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢-٥٨٩هـ/—/١١٣٧-١١٩٣م)
قد أصبح علماً على الجهاد الإسلامي عبر تاريخ الإسلام ، فإنه هو القائد
السني ، الذي خلّص بلاد الإسلام من التحريفات الشيعية الإسماعيلية
الباطنية .. كما خلّص هذه البلاد من أشرس حملات الصليبيين .. بينما هو
مرفوض عند الشيعة — مع الأسف الشديد — ! ..

وكذلك صنعت جماهير أهل السنة ، وجيوشهم وقاداتهم ، عندما
حرروا ديار الإسلام من العزة التتارية المدمرة ، التي هددت الوجود
الإسلامي .. فالذين قهرّوا التتار في " عين جالوت " (٦٥٨هـ/—/١٢٦٠م)
هم أهل السنة .. والذين استعادوا بغداد من التتار هم أهل السنة .. بينما
الخيانة التي فتحت أبواب بغداد أمام " هولاكو " (١٢١٧-١٢٦٥م) كانت
من الآخرين !! ..

إن .. فرصيد الجهاد والفداء والاستشهاد الذي حرر الشرق من
القهر الاستعماري القديم .. ففتح أبواب هذا الشرق أمام الإسلام .. إنما
يصب في تاريخ السنة ، الذي هو تاريخ جمهور الأمة .. وكذلك الحال

(١) (الأعمال الكاملة) ص ١٥٨-١٦١ . دراسة وتحقيق : د . محمد عسّارة . طبعة
القاهرة ، سنة ١٩٦٨ م .

مع رصيد الجهاد والفداء والاستشهاد الذى حرر الشرق الإسلامى
— مرة ثانية — من الصليبيين الذين أرادوا اختطاف هذا الشرق من
الإسلام .

(٤)

وفى عصرنا الحديث .. وبعد أن استغل الاستعمار الغربى " التشيع
الصفوى الإيرانى " فى إضعاف الدولة العثمانية .. ثم أخذ فى احتلال
ولايات هذه الدولة الإسلامية الجامعة ، ولاية بعد ولاية ، حتى عمت بلوى
الاستعمار — الإنجليزى .. والفرنسى .. والإيطالى — أغلب بلاد الإسلام .
من الذى قاد حركات التحرر الوطنى التى دفنت هذه الإمبراطوريات
الاستعمارية فى أرض الشرق الإسلامى ؟؟

إنهم أهل السنة ، الذين يكتون ٩٠% من تعداد أمة الإسلام .. فهم
الذين حرروا الجزائر من القهر الاستعمارى الفرنسى ، وقدموا على مذبح
حريتها قرابة المليونين من الشهداء !! وهم الذين حرروا مصر من
الاستعمار الإنجليزى ، لتعود إلى قيادة حركات التحرر الوطنى والقومى
على امتداد ديار الإسلام فى آسيا وإفريقيا .

وهم الذين قادوا ويقودون حتى هذه اللحظات حركات التحرر الوطنى
والجهاد الإسلامى على أرض فلسطين .. والعراق .. والشيشان ..
وكشمير .. والفلبين .. والصومال .. والسودان .. وأفغانستان .. إلى آخر
ميادين الجهاد والتحرر الوطنى فى عالم الإسلام .

بينما رأينا - ونرى - قطاعات من الشيعة - في العراق - يتحالفون مع أمريكا ضد المقاومة السنية للاحتلال ١ .. ورأينا الشيع الإيراني يساعد أمريكا على احتلال أفغانستان - لأسباب مذهبية ضيقة الأفق - ويصنع ذات الخطيئة مع أمريكا ضد العراق ١ ..

لذلك .. فإن الربط بين بطوئة " حزب الله " على أرض لبنان وبين الشييع - كمذهب - هو خطأ فكري .. ووهم لا نصيب له من الصدق والموضوعية .. فهنا - في لبنان - شيعة أبطال ، يحاربون الصهيونية والاستعمار .. وهناك - في العراق - شيعة ، فتحو أبواب العراق أمام الغزاة الأمريكان ، وأمام الاختراق الصهيوني ، بل ودخلوا بغداد على ظهور الدبابات الأمريكية ١ .. ويحكمون الآن من السفارة الأمريكية في " المنطقة الخضراء " ! ..

بل إن في إيران - التي تساعد " حزب الله " العربي - شيعاً فارسياً يضطهد ، ليس فقط أهل السنة الإيرانيين ، وإنما يضطهد - كذلك - الشيعة العرب والتركمان والأكراد في إيران ١ ! ..

فالمذهب شيء .. والموقف الوطني والجهادي شيء آخر .. والصمود والبطولات ليست حكراً على مذهب بعينه .. ولا دين بذاته .. ولا فلسفة دون غيرها من الفلسفات .. كما يحاول بعض الخبثاء أن يوهموا بعض الذين لا دراية لهم بحقائق الفكر والمذاهب والتاريخ ..

بل إن تاريخ الشيعة - كمذهب - لم يعرف انخراطهم في الثورات ضد الحكام الظلمة وضد الاحتلال الأجنبي إلا في القرن العشرين ! .. فلقد ظلوا طوال تاريخهم - منذ الإمام جعفر الصادق (٨٠-١٤٨هـ/٦٩٩-٧٦٥م) يعلقون الاشتغال بالسياسة والقيام بالثورة .. وبناء الدولة على عودة الإمام الغائب (٢٥٦هـ/٨٧٠م) .

وكان أهل السنة هم الذين يقودون الثورات وحروب التحرير الوطني والقومي والجهاد الإسلامي طوال هذا التاريخ .

* وإذا كنا نمنح الإعجاب والتأييد - كل الإعجاب والتأييد - للمقاومة الباسلة " لحزب الله " في لبنان و" حماس " و" الجهاد " في فلسطين .. فإننا نمنح الإعجاب للإسلام الذي يحرك الأمة - بالجهاد - وينفعها إلى المقاومة .. وليس لمذهب من المذاهب التي يحتضنها الإسلام .. وإلا لتغيرت مذاهبنا ، بل ودياننا تبعاً للمذاهب والديانات التي سادت وتعمود في المجتمعات التي قاومت وقاتلت الجبابة والمستعمرين .

* ولو كان " المذهب " هو المعيار .. فهل نطلب من الشيعة المعجبين ببطولات " حماس " في فلسطين ، أن يتحولوا من التشيع إلى السنة .. كما يفكر البعض في التحول إلى الشيعة بسبب الإعجاب ببطولات المقاومة الشيعية في لبنان ؟؟

وأخيرا .. فإن هناك حقيقة اجتماعية هامة وخطرة ، تقول :

إن الوحدة المذهبية لأي مجتمع من المجتمعات هي مصدر هام من مصادر قوة هذا المجتمع وتماسك نسيجه الوطني ، تعينه على الصمود في مواجهة التحديات - الداخلية .. والخارجية - .. لذلك ، فإن خلخلة الوحدة المذهبية في المجتمعات السنية يحولها إلى مجتمعات طائفية هشة لا قوام لها ، ولا قدرة لها على الصمود في وجه الغزاة .. ومن هنا فإن زرع خلايا شيعية في المجتمعات السنية ، أو زرع خلايا سنية في المجتمعات الشيعية ، هو عامل تفكيك ، يفتح الثغرات أمام الاجتياح الخارجي . ويخلق " الأوراق " التي يلعب بها الاستعمار .

لذلك ، فإن من حقنا جميعا - بل ومن واجبنا - أن نمنح كل التأييد والإعجاب والتعجيد لجميع حركات المقاومة الوطنية والقومية والإسلامية في لبنان .. وفلسطين .. والعراق .. وأفغانستان .. والتشيشان .. وكشمير .. والصومال .. والفلبين .. الخ .. الخ . ولكن ، دون أن تقع في الوهم الذي يزعم أصحابه أن المقاومة هي حكر على مذهب دون مذهب .. أو تقع في خطنية خلخلة النسيج المذهبي والاجتماعي لمجتمعاتنا العربية والإسلامية .. فحقائق التاريخ .. وحقائق الواقع أكبر وأصدق من جميع الأوهام .

إن تحويل الشعب إلى طوائف هو هدف ثابت من أهداف الاستعمار . لأن هشاشة المجتمعات الطائفية تسهل اختراقها على الاستعمار . وأمريكا التي تحارب الشيعة في لبنان .. هي التي تستعين بهم في العراق .. وتدافع عنهم في مصر !! .

وعندما جاء يونانيرت (١٧٦٩-١٨٢١م) ليحتل مصر سنة ١٧٩٨م
 راهن على الأقباط في مصر .. وعلى اليهود في فلسطين .. دون أن يكون
 أي احترام لا للأقباط ولا لليهود .. لقد تحدث عن ما سماه " الأمة القبطية "
 فقال : " سوف يستغنى أن أحميها .. وأعيد لها الكرامة والحقوق التي
 لا يمكن فصلها عن الإنسان " .

أما " النخس " الذي أراده من الأقباط ، فهو — بنص عبارته — :
 " محاذية أبناء الأمة القبطية بالكثير من الحماسة والإخلاص في خدمة
 الجمهورية الفرنسية " !!

ولنتذكر — جميعا — كلمات يونانيرت عن الأقباط ، التي يقول فيها :
 ' إنهم أناس لنام في البلاد ، ولكن يجب مراعاتهم لأنهم الوحيدون الذين
 في يدهم مجمل الإدارة للبلاد .. لقد حصلت منهم على سجلات هائلة حول
 قيمة الضرائب المفروضة على مصر ' !! (١) .

ألا قاتل الله الطائفة .. والنعب بأوراقها .. ولعن الله الخبثاء الذين
 يسلكون سبيل المذهبية لظلمة النسيج الاجتماعي في مجتمعات الإسلام ،
 سواء أكان هذا النسيج سنيا — في المجتمعات الشنتية — أو شيعيا — في
 المجتمعات الشيعية — ..

وعلى من يفكر في أن يتحول من السنة إلى الشيعة — في مجتمع
 سنّي — أن يدرك أنه بذلك التحول سيعزل نفسه عن محيطه ، ويحول

(١) صحيفة (وطنى) وثائق نشرها عادل جدى — تحت عنوان " المخططات العنصرية "

جهوده ضد ذلك المحيط ! .. وكذلك الحال مع الشيعة الذي يفكر في التحول إلى السنة — في محيط شيعي — ..
 فنحن جميعا مسلمون .. وعلينا أن نوجه كل طاقاتنا لتحرير بلادنا من الفهر الاستعماري والاستبداد الداخلي .. لا أن نفرغ طاقاتنا في العبث المذهبي ، الذي لن يفيد منه سوى الأعداء !

(٧)

لكن .. إذا كان هذا هو منطق العقل الرشيد .. فليس كل ما يتعنى المرء يدركه ! لقد تحدثت إلى أحد فضلاء علماء الشيعة .. عندما التقينا بالجزائر وأخبرنا عن كتابات القرن العاشر .. في "منطق الفكر الإسلامي" وقلت له :

— لقد لاحظت — وأنا أتابع إصدارات الكتب الشيعة — كثرة مبالغها فيها في الكتب التي تهجم "الوهابية" .. مع أن تعداد الوهابيين لا يعدو بضعة ملايين .. في أمة يقرب تعدادها من المليار ونصف المليار .. فلم هذا الجهد الكبير الذي تبذله في هذا الميدان ؟

فكان جوابه :

— إنهم يكفروننا ..

فقلت له :

— وماذا في هذا ؟ .. إنهم — أو بعضهم — يكفروننا — نحن الأشعرية والماتريدية — ونحن نمثل أكثر من ٩٩% من أهل السنة .. ومع ذلك لا نلقى إليهم بالا ! ..

ومنذ ذلك التاريخ — وعبر اهتمامي بالمذاهب الإسلامية — أدركت
 أن الشيعة والوهابية يتصرفان — كليهما — لا بعقيدة الأقليّة "و" نزعة
 الفرقة الناجية "،، وربما بعقيدة "الدين المستقل"، الذي يكفر أهله كل
 الآخرين !!.

وليهذه الحقيقة، نجد احتقاناتهما الشديدة وسعيهما الحثيث "للتحويل
 المذهبي" وكأنه "هداية إلى الإسلام" !! فالوهابيون يفرحون عندما
 يتحدثون عن حصانهم من "الشيعة الذين تسننوا"، والشيعة قد جعلوا فنا
 من فنون تأليفهم للحديث عن الذين تحولوا من "السنة" إلى "الشيعة"
 حتى أصدروا — في هذا الفن — العديد من الكتب .. ومنها كتاب
 (المتحولون) — الذي بلغت أجزاءه سبعة مجلدات !!

وإذا كانت الأوهام درجات ومستويات .. فيها البسيط .. والمتوسط
 .. والثقيل .. فإن ذروة الأوهام الشيعية قد تمثلت في ذلك الذي ادعاه
 "الكذبة — المرتزقة" من تحول عدد من أئمة علماء أهل السنة والجماعة
 وأعلامهم إلى المذهب الشيعي .. لقد ادعوا ذلك على شيخ الأزهر، ومفتي
 المالكية الشيخ سليم البشري (١٢٤٨-١٣٣٥هـ/ ١٨٦٧-١٩١٧م) ..
 وادعوه على الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت (١٣٠١-١٣٨٣هـ/ ١٨٩٣-١٩٦٣م) .. بل وبلغ بهم "أنهم من الكاذب"
 إلى حد ادعاء ذلك على الأستاذ الإمام الشيخ محمد عصفور
 (١٢٦٦-١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩-١٩٠٥م) !! ..

وإذا كان هذا " الفن " من فنون " الأوهام الكاذبة .. والأكاذيب الوهمية " يحتاج في الرد عليه وتفنيده إلى دراسة خاصة .. فإن نشير هنا - مجرد إشارات - إلى مكانة هذه الدعوى عن تحول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده إلى التشيع .. مكانتها من الحقائق البهيمية والصلبية ، التي تمثلت وتجسدت - ولا تزال ممثلة ومتجسدة - في حياة الأستاذ الإمام وفي فكره - المجموع والمحقق في (أعماله الكاملة) :

١ - لقد أعلن الشيخ محمد عبده عن مذهبه ومذهب أستاذه جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤-١٣١٤هـ/١٨٣٨-١٨٩٧م) ومذهب جمعية (العروة الوثقى) - التي رأسها الأفغاني .. وكان محمد عبده نائب رئيسها - أعلن عن مذهبهم فقال - في رسالة كتبها إلى أحد أعضاء هذه الجمعية - " .. وليعلم - سيدي - أننا - أشعريون أو ماتريديسون ، وإنما في أعمال العبادات نلتزم بين المذاهب الأربعة ، فمننا المالكي والشافعي والحنبلي والحنفي .. " (١) .

فيمن يجوز أن يقال عن صاحب هذا الإعلان " إنه تشيع " .. ؟
٢ - وقال الإمام محمد عبده عن مذهب أستاذه جمال الدين الأفغاني وهو يترجم له في المقدمة التي كتبها لرسالة (الرد على الدهريين) - : إن مذهب " حنفي " كأهل أفغانستان السنة - وأنه كان من أشد الناس محافظاً على مذهب إمامه أبي حنيفة النعمان (٨٠-١٥٠هـ/٦٩٩-٧٦٧م) .. وينص عبارة الشيخ محمد عبده عن مذهب الأفغاني :

(١) (الأعمال الكاملة، ج ١ ، ص ٦٩٧ ، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م -

« أما مذهب الرجل فحنيفي حنفي . وهو وإن لم يكن قسبي عقيدته مقتدا ، لكنه لم يفارق السنة الصحيحة ، مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية — رضي الله عنهم — وله مثابرة شديدة على أداء الفرائض قسبي مذهب ، وعرف بذلك بين معاصريه في مصر أيام إقامته بها ، ولا يسألني من الأعمال إلا ما يحل في مذهب إمامه — (أبي حنيفة) — . فهو أشد من رأيت في المحافظة على أصول مذهب وفروعه .. » (١) .

٣ — وإذا كانت نقطة انطلاق التشيع ، ومعياري افتراقه عن مذهب أهل السنة والجماعة ، هم رفض الشيعة إقامة الدولة والخلافة والإمامة على « الثوري » والاختيار .. وسلطة الأمة ، واقتضاها — فلا من ذلك — على « النص والتوصية والتعيين » من السماء والوحي .. وبعبارة العلامة السيد محمد باقر الصدر :

« فإن النبي لم يمارس عملية التوعية على نظام الثوري وتفصيله التشريعية أو مفاهيمه الفكرية ، ولم يطرح الثوري كنظام للأمة ، ولكنه أعد الإمام عليا للمرجعية وزعامة التجريبية بعده ، وأودعه سفينة كاملة ، وعلمه ألف باب من العلم .. » (٢) .

إذا كان هذا هو رفض الشيعة لإقامة الدولة الإسلامية على نظام الثوري ، فإن الأعمال الفكرية للإمام محمد عبده مليئة بالحديث

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ .

(٢) محمد باقر الصدر (التشيع ظاهرة طبيعية في إطار الدعوة الإسلامية) ، ص ٤٠ ، ٤٧ .

٥٦ . تقديم وتعليق السيد طائب الحسيني الفرعي . طبعة القاهرة سنة ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .

عن الشورى وسنطة الأمة طريقا وحيدا لإقامة النبوة والخلافة والإمامة
في الإسلام .. حتى لقد خصص لهذا المبحث العديد من الفصول
والمقالات (١) .

فهل يكون شيعة من يفترق ويخالف وينافض نقطة الإنطلاق الشيعية
في عقيدة الإمامة ؟

٤ - وإذا كانت الشيعة تدعى أن الرسول ﷺ قد اختار معه في
"المباهلة" مع نصارى نجران سنة ١٠ هـ علي بن أبي طالب .. وزوجه
فاطمة .. وابنيهما الحسن والحسين .. ويذكرون ذلك في تفسيرهم قول
الله - سبحانه وتعالى - : (فمن حاجك فيه من بعد ما جاعك من
العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا
وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) (٢) .

فإن الإمام محمد عبده يرفض هذه الدعوى الشيعية .. ويرفض كل
الروايات التي تؤيدها .. ويقول - في تفسير هذه الآية - :

" الروايات متفقة على أن النبي ﷺ اختار للمباهلة عليا وفاطمة
وولديهما .

ويحملون كلمة " نساءنا " علي فاطمة ، وكلمة " أنفسنا " علي
علي فقط .

ومصادر هذه الروايات الشيعية . ومقصدهم معروف ، وقد اجتهدوا
في ترويحها ما استطاعوا حتى راجت على كثير من أهل السنة .

(١) انظر : علي سيد السبيل المثال - ج ١ ، ص ٣٨١-٣٩٩ من أعماله الكاملة .

(٢) آل عمران : ٦١ .

ولكن واضعها لم يحسنوا تطبيقها على الآية ، فإن كلمة « تساعدا » لا يقولها العربي ويريد بها بنته ، لا سيما إذا كان له أزواج ، ولا يفهم هذا من لغتهم . وأبعد من ذلك أن يراد « بأنفسنا » على - عليه الرضوان - وهذا الإشكال وارد على قول الشيعة ومن شايعهم .. - (١) .
 فيل يكون شيئا من يتهم الشيعة بالوضع - أي الكذب المتعمد - وبشرويح هذا الكذب ودسه في كتب التفسير .. ثم ينقض - بالنزاهة - هذه الروايات التي وضعوها ؟! ..

٥ - وإذا كان عمدة عقائد الشيعة في الإمامة هي عصمة الأئمة .. فإن الإمام محمد عبده يرفض هذه العقيدة الشيعية من أساسها .. ويرفض تفسير الشيعة لـ « أولى الأمر » في الآية القرآنية : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » (٢) . بأنهم « أئمتهم المعصومون » .. يرفض الإمام محمد عبده هذه العقيدة المركزية والمعيارية في المذهب الشيعي .. ويقول - في تفسيره لهذه الآية - :
 " وقالت الشيعة إنهم الأئمة المعصومون . وهذا مردود ، إذ لا دليل على هذه العصمة ، ولو أريد ذلك لصرحت الآية " .

وبعد رفضه لهذه العقيدة الشيعية السحرورية ، يقدم تفسيره لـ (أولى الأمر) ، فيقول : " إن المراد بأولى الأمر جماعة أهل الحل والعقد من المسلمين ، وهم الأمراء والحكام والعلماء ورؤساء الجند ،

(١) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ج ٥ ، ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٢) النساء : ٥٩ .

وسائر الرؤساء والزعماء الذين يرجع إليهم الناس في الحاجات والمصالح العامة .^{١٠}

وهو بهذا التفسير - لأولى الأمر - يجعل السلطة في الأمة عن طريق ممثليها ، وليس في الأمة المعصومين - كما هي عقيدة الشيعة في الإمامة والسلطة والدولة - .

ثم يضرب - الإمام محمد عبده - مثلاً على المؤسسات الشورية الإسلامية التي جسدت سلطة (أولى الأمر) في عهد الخلافة الرشيدة - خلافة الفاروق عمر بن الخطاب - الذي يكفره الشيعة ويلعنونه! - فيقول : .. " وذلك كإنديون الذي أشاد عمر باستشارة أهل الرأي من الصحابة - رضى الله عنهم - وغيره من المصالح التي أحدثها - (عمر) - برأى أولى الأمر من الصحابة ، ولم تكن في زمن النبي ﷺ ولم يعترض أحد من علمائهم على ذلك .. " (١١) .

فيل هذا الفكر الواضح والحاسم ، الذي يرفض عقيدة الشيعة في عصمة الأئمة " وينحاز إلى الشورى ومؤسساتها كمصدر للسلطة - وليس إلى السلطان الإلهي ملانمة المعصومين .. كما ينحاز إلى نهج عمر بن الخطاب والصحابة - الذين يكفرهم الشيعة ويلعنونهم - في سياسة الدولة .. ويتراضى عن هؤلاء الصحابة ١٩٩ ..

هل يمكن أن يكون هذا الفكر الواضح والحاسم صادراً من شيعي ١٢ .

(١) المصدر السابق : ج ٥ ، ص ٢٦٩ .

٦ - وانطلاقاً من « سطحية أهل السنة والجماعة » ، يرفض الإمام محمد عبده الغلو الشعبي .. ويقول : « وغلا بعض الشيعة فرقعوا علياً أو بعض ذريته إلى مقام الألهية أو ما يقرب منه ، ونبع ذلك خلاف في كثير من العقائد .. » (١) .

فهل إطلاق لفظ « الغلو » على مذهب الشيعة في الإمامية ، وفي علي بن أبي طالب والأئمة من بعده ، يمكن أن يصدر عن شيعي .. تتوالت من السنة إلى الشيعة ١٢ ..

لقد قال الشيعة الإثنى عشرية في علي بن أبي طالب :

« كان به طلب السلام - محضاً .. يحدثه الضحك .. » (٢) .

وقالوا عن كل إمام من أئمتهم الإثنى عشر :

« إن قوة الإلهام عند الإمام ، التي تسمى بالقوة القدسية ، تبلغ الكمال في أعلى درجاته .. وتسمى توجسه إلى شيء من الأشياء وأراد معرفته استطاع علمه بتلك القوة القدسية الإلهامية . ولا توقف . ولا ترتيب مقدمات ولا تلقين معلم .. والأئمة لم يستنبطوا على أحد . ولم يتعلموا على يد معلم ، من مبدأ ما قولتهم إلى سنن الرشد ، حتى القراءة والكتابة ، ولم يثبت عن أحدهم أنه دخل الكتائب أو تعلم على يد أستاذ في شيء من الأشياء ، مع ما لهم من منزلة عظيمة لا تجارى . وما سئلوا عن شيء من الأشياء إلا أجابوا عليه في وقته ، ولم تمر

(١) المحضر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٧٧ .

(٢) الكليني (الكافي) ، ج ١ ، ص ٢٧١ .

على أسنتهم كلمة (لا أدري) ولا تأجيل الجواب إلى المراجعة أو التأمل ونحو ذلك .. (١) .

فهل رفض هذه العقيدة الشيعية في الأئمة ، ووصفها بالغلور " يمكن أن يصدر عن منحول من السنة إلى الشيعة ؟! "

٧ - وإذا كان الشيعة قد جعلوا للإمام سلطة دينية كنيوية ..

فهو المعصوم .. والمنصوص عليه .. والمعين من السماء - بواسطة الوحي - .. وهو مصدر الشريعة .. والحافظ لها .. والقيم عليها - بل والقيم على القرآن - .. والذي لا يجوز عليه الخطأ ، بينما يجوز الخطأ والضلال على الأمة جمعاء .

ولقد قادوا الإمامة على النبوة .. بل ورفعوها فوق النبوة ، فقالوا :

' إن دفع الإمامة كفر ، كما أن دفع النبوة كفر .. ولقد امتسكت الإمامة على النبوة لأنها استمرت بأداء الرسالة بعد انتهاء دور النبوة .. فالنبوة لطف خاص والإمامة لطف عام ' (٢) .

بل وجعلوا لهذا الإمام خلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون ! - وليس فقط الأمة والدولة والاحتجاج ! - ورفعوا مقام الإمام فوق مقام الرسول ! .. وبعبارة الإمام الخميني :

(١) محمد رضا المظفر (عقائد الإمامية) ، ص ٧٦-٧٩ ، طبعة الحجة ، دار المعرف.

(٢) (التأكي) ج ١ ، ص ١٦٨ ، ١٦٩ والمفهوم (تلخيص الشافي) ج ١ ، ص ١٢١ ، ١٢٢ . طبعة النجف سنة ١٣٥٤ هـ .

١ .. فإن للإمام مقاما محمودا ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون . وإن من ضرورات مذهبنا أن لأئمتنا مقاما لا يبلغه منك مقرب ولا نبي مرسل ١ .
 ٢ وبموجب ما لدينا من الروايات والأحاديث فإن الرسول الأعظم والأئمة كانوا قبل هذا العالم أنوارا ، فجعلهم الله بعرشه محققين ، وجعل لهم من المنزلة والرفي ما لا يعلمه إلا الله ٢ .
 بل ويجعلون هذه السلطة الدينية الكهنوتية — التي تفوقت على السلطة الحبرية للبابوات — تلفيقه النائب عن الإمام — في عصر الغيبة للإمام الغائب — :

وذلك ٣ لأن الفقيه هو وصي الرسول من بعد الإمام ، والحجة على الناس كما كان الرسول حجة عليهم . وفي عصر الغيبة يكون — (الفقيه النائب) — هو إمام المسلمين دون سواه .. وله كل سلطات الإمام ، الذي هو حجة الله .. الذي عينه الله .. فالله جعل الرسول وليا للمؤمنين جميعا ، ومن عبده كان الإمام وليا .. ونفس هذه الولاية والحاكمية موجودة لدى الفقيه .. فالقيم على الشعب بأسره لا تختلف مهمته عن القيم على الصغار إلا من ناحية الكمية ٤ .. (١) .

إذا كانت هذه هي السلطة الدينية الكهنوتية للإمام عند الشيعة .. فكيف يكون الشيخ محمد عبده شيعيا ، وهو الذي نقض هذا النداء الكهنوتي

(١) الحسيني (الحكومة الإسلامية) ، ص ٥٦ ، طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٧ ، ٤٩ — ٥١ .

من أساسه ؟ .. بل واعتبر نقض هذا البناء واحداً من أجل أصول
الإسلام ؟ .. إنه هو القاتل :

‘ أصل من أصول الإسلام — وما أجله من أصل — قلب السلطة
الدينية والإيمان عليها من أساسها . هدم الإسلام بنساء تلك السلطة ،
ومحا أثرها . حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم .. إن
الرسول كان ميلفاً ومذكراً ، لا مهيمناً ولا مسيطراً .. والمسلمون
يتناصحون ، وهم يقيمون أمة تدعو إلى الخير ، وهم المراقبون عليها ،
وتلك الأمة ليس لها عليهم إلا الدعوة والتذكير والإنذار .. فليس في
الإسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه .. والله لم
يجعل للخليفة ولا لنقاضي ولا للمفتي ولا لشيخ الإسلام أدنى سلطة على
العقائد وتقرير الأحكام .. وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء هي سلطة
مدنية .. ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعى حق السيطرة على إيمان أحد
أو عبادته لربه ، أو يذاعه في طريق نظره .. فليس في الإسلام سلطة
دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة ، والدعوة إلى الخير والتنفير عن
الشر ، وهي سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم ،
كما خولها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم .. وليس لمسلم مهما علا
كعبه في الإسلام على آخر ، مهما انحطت منزلته فيه ، إلا حق النصيحة
والإرشاد ‘ (١) .

(١) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ، ج ٣ ، ص ٢٨٥-٢٨٦ .. طبعة بيروت .

فيل يمكن أن يكون صاحب هذا الفكر والموقف ، المتناقص ، السيدام
 لعقيدة الشيعة في سلطات الإمام وسلطانه ، تبعياً .. تحول من مذهب أهل
 السنة والجماعة إلى مذهب الشيعة الإثني عشرية ؟
 وكيف جاز ذلك " الوهم - الكاذب " على من له أدنى ذريرة بفكر
 الأستاذ الإمام ؟ ..

٨ - وأخيراً .. فإن الضربة القاصمة والفاضية على هذا التعليل
 - دعوى تحول محمد عبده عن السنة إلى الشيعة - تأتي صريحة
 وحاسمة .. وعلى لسان محمد عبده نفسه .. ورواية تلميذه ومريده
 وموضح سيرة الإمام السيد محمد رشيد رضا
 (١٢٨٢-١٣٥٤هـ/١٨٦٥-١٩٣٥م) .. روايته لرأي أستاذه محمد عبده
 في مذهب الشيعة .. والذي بلغ من شدته الحد الذي جعل محمد عبده
 من رشيد رضا عدم إذاعته في حياته .. بل وجعل رشيد رضا يتخرج من
 إذاعته حتى بعد وفاة الأستاذ الإمام ! ..

ونقرأ ما سجله الشيخ رشيد رضا في (تاريخ الأستاذ الإمام) عن هذا
 الرأي ، لنعلم حقيقة موقف محمد عبده من مذهب الشيعة ..

يحكي الشيخ رشيد - في الحوار الذي دار بينه وبين الشيخ محمد
 عبده حول البهائية .. ودعوى داعيتها عباس ميرزا فاضل الله
 (١٢٦٠-١٣٣٩هـ/١٨٤٤-١٩٢١م) - أنهم - (البهائية) - ما قاموا
 إلا " لإصلاح مذهب الشيعة وتقريبه من مذهب أهل السنة " .. ثم يقول
 الشيخ رشيد :

.. وذكر — (أى الأستاذ الإمام) — ما لم يأتني لى بنقله عنه فى حياته .

وأرى الحكمة فى ترك التصريح به بعد وفاته .

وإنما أقول : إن حكمه عليهم — (الشيعة) — أشد من حكم شيخ الإسلام ابن تيمية .

وقال — (أى محمد عبده) : هم أحوج الفرق إلى الإصلاح .. (١) .
وإذا كان إخواننا الشيعة — علماء وعامة — يعرفون جيداً حكم شيخ الإسلام ابن تيمية عليهم — وهو ما لا نريد أن نذكره هنا — .. وإذا كان حكم الإمام محمد عبده على مذهبهم أشد من حكم ابن تيمية .. فكيفه يليق بهم أن يفتحوا أبوابهم " للكذب " المرتقة " لسيوفهم " عليهم موقف محمد عبده من الشيعة والتلجج . فليدعوا نحوه من السنة إلى الشيعة ، لا بدليل .. ولا قرينة .. وإنما بحكايات خرافية هي أشبه ما تكون بحكايات المعجزة لصغار الأطفال !: .. تم يكون ذلك ويظهره ويتبروه فيما صنفوا عن (المتحولين) ١٩ ..

إننا إذ نكتفى — فى هذا المقام — بهذا الحديث عن حقيقة موقف الإمام محمد عبده من المذهب السبعى .. لا نريد مناقشة رأيه .. وإنما نريد

(١) رتب رضا (تاريخ الأستاذ الإمام) ، ج ١ ، ص ٩٣٥ . طبعة مطبعة المعارف — القاهرة سنة ١٣٥٠ هـ — ١٩٣١ م ، وانظر كذلك (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ج ٢ ، ص ٦٠ ، ٦١ .

تبيان هذا الزيف الذي يزيفه البعض على العديد من رموز علماء أهل السنة .. ونقول لهم :

إن القضاء الشيعي ملئ بالعلماء والفلاسفة والفقهاء .. فعلى العقلاء من هؤلاء العلماء الأجلاء أن يتخلصوا من " عقدة الأقلية " ، الباحثة بأي أسلوب .. حتى ولو كان المكيفيلية عن تكثير الأعداد .. وعن شهادة الآخرين للمذهب — ولو بالزور — .. ذلك لأن انتزاع " ألغام التكفير " هو السبيل لبناء وحدة الأمة .. وبهذه الوحدة يتخلص الجميع من هذه " العقدة " ، التي تلجئ البعض إلى ما لا يليق ! ..

والآن .. ما العمل ؟؟

إننا ندعو الآن أن يتنادى حكماء المذاهب الإسلامية - وخاصة من السنة .. والشيعية .. والسلفية والصوفية - إلى حوار حكماء ، تعقد جلساته بعيداً عن العامة والإعلام ، للاتفاق على أمرين : أولهما : عاجل .. وهو إصدار فتوى جماعية - سنية .. شيعية .. صوفية .. سلفية - بتحريم وضع تهمة التكفير وما يتصل به لأي مذهب من مذاهب الأمة ، التي يشهد أهلها أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .. تحريم وضع هذه الاتهامات على مواقع الإنترنت ، وغيرها من وسائل النشر والإعلام الجماهيرية ..

وثانيهما : العمل على تهذيب كتب التراث - لدى هذه المذاهب جميعها - وذلك بنظيرها من كل أحكام التكفير لمن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .. وذلك لنزع هذه الألقاب الموقوتة والمتفجرة من ثقافة الأمة .. الأمر الذي بدونه سيظل الحديث عن وحدة الأمة ضرباً من التعبد ، بل - وفي بعض الأحيان - لوفاً من ألوان التفاف ! .

• • •

لكن .. يبقى السؤال الأهم .. وهو :

— هل هناك إمكانية حقيقية لتهديب هذا التراث الملحد .. وتغييره

من ألعام التكفير ؟ 19

— إن جوابنا هو : نعم . إذ نص بدأنا حوار الحكماء هذا بعنده —

ولو قليل — من ذوى الحكمة والإخلاص والوعى بالمخاطر التى تليق بهذه

وجود الأمة ، والتى تتوسل بالصراعات المذهبية لتحقيق مقاصد الأعداء ..

لقد سبق لعدد كبير من علماء الشيعة الإثنى عشرية أن راجعوا

وانتقدوا الروايات التى استلأ بها ترقيمهم ، والتى تتحدث عن تحريف القرآن

الكريم ، وعن وجود مصحف خاص بالشيعة . يسمى " مصحف على "

أو " مصحف فاطمة " .

راجعوا هذه الروايات .. وضعفوها .. وانتقدوا المؤلفات التراثية

الشيوعية التى انطلقت منها — من مثل كتاب " السرايا حسنين النورى "

[فصل الخطاب فى تحريف كتاب رب الأرباب] 20 .

ولقد قمنا فى هذه المراجعة النقدية عددا من المبادئ العامة فى

منهج المراجعة لهذا التراث ، ومنها :

1 — أن أغلب هذه المرويات التى مزقت وتمزقت وحده الأمة قد

جمعها وسلمها وثونها " الإخباريون " ، الذين كانت كل ميثاقهم جمع

وتكوين ما يسمعون من المرويات دونما نقد أو مقارنة أو دراسة أو فقه

أو اجتهاد .. وهذا المنهج " الإخباري " قد مثل مرحلة فى التاريخ الفكري

لجميع المذاهب فى تاريخ الإسلام الحضارى ، الأمر الذى يوجب على أهل

" الدراسة " و " الاجتهاد " إعادة النظر والفحص لهذه المرويات .

٢- إنه لا فائدة ولا عظمة لكتب التراث التي جمعت روايات الإخباريين " هذه .. وليس فيها ما يعلو على المراجعة ، سواء كانت الرواية والرجال .. أو المتن والدراسة لمعجميين ومعقولة هذه الرويات .

وفي هذا الإطار رأينا علماء الشيعة الإثني عشرية يتحدثون عن المصدر الأول لأحاديث عندهم - كتاب [الكافي من الأصول] للكليني - وهو المقابل لصحيح البخاري عند أهل السنة - فيقولون عن هذا الكتاب - الذي شاعت فيه روايات التكفير .. وروايات تحريف القرآن :

" .. وأما بالنسبة إلى [الكافي] - الذي ألف خلال عشرين سنة - فنحن لا نقول بصحة كل الروايات التي نقلها الكليني فيه ، لأن قسما منها بعد من حيث التمسك ضعيفا أو مراسلا أو غير ذلك . وقسما آخر منها لا يوافق القرآن ، ويمكن أن يخدم فيه من حيث المتن .

ويقول السيد هاشم معروف الحسيني - في كتابه [دراسات في الحديث والمحدثين - ص ١٣٢ ، ١٣٤] - : " إن المتقدمين لم يجمعوا على الاعتماد على جميع مروياته - [الكافي] - جملة وتفصيلاً " .

ويقول أيضا : " إن أحاديث الكافي ، التي بلغت ستة عشر ألف حديث ومائة .. وتسعة وتسعين - ١٦١٩٩ - حديثا ، وهي :

* الصحيح منها : خمسة آلاف واثنين وسبعين حديثا " ٥٠٧٢ .

* والحسن : مائة وأربعة وأربعين حديثا " ١٤٤ .

* والموثق : ألفا ومائة وثمانية وعشرين حديثا " ١١٢٨ .

* والفقوى : ثلاثمائة وحديثين " ٣٠٢ .

* والضعيف : تسعة آلاف وأربعمئة وثمانين حديثاً " ٩٤٨٠ .

هذا من حيث السند فقط " (١) .

فإذا كان هذا هو موقف الاجتهاد الشيعي من روايات الإخباريين ،
التي جاءت في أهم مصادرهم الحديثية — [الكافي] فإننا نكون بإزاء
إمكانية حقيقية ، بل وفرصة ذهبية ، لمراجعة كل التراث المذهبي لدى
مختلف الفرق والمذاهب والتيارات الفكرية ، لنزع " الغمم التكفير " من هذا
التراث ، وتهذيب كتبه ، وتقديمها في الصورة التي تجعل منها عاملاً من
عوامل وحدة الأمة ، بدلاً من أن تكون عامل تمزيق وتفرق ..

نقد راجع الشيعة الإثني عشرية — بهذا المنهج — كل مروياتهم التي
تحدثت عن تحريف القرآن الكريم — بما فيها مرويات [الكافي] — وقدموا
كتاب [أكلوبة تحريف القرآن بين الشيعة والسنة] . الذي صدرت طبعته
الرسمية في طهران ١٩٨٥ م .. والذي قدمنا له وأحدثنا طبعة بالقاهرة
٢٠٠٦ م .

ولذلك ، فإننا أمام إمكانية حقيقية وفرصة ذهبية لحوار حكماء ،
يجمع صفوة من عقلاء علماء المذاهب الإسلامية ، الذين يفتشون واقعنا
المعاصر مع فقههم للأحكام .. والذين يعيشون ويرابطون على ثغور
المواجهة بين الأمة وبين " الصليبية — الصهيونية " ، ويدركون أثر التوحدة
الإسلامية في الانتصار على التحديات الشرسية التي تواجه الإسلام

(١) الشيخ رسول جعفریان [أكلوبة تحريف القرآن بين الشيعة والسنة] ص ٧٩ ، ٨٠ .

تقديم د . محمد عمارة : طبعة مكتبة النافذة — القاهرة سنة ٢٠٠٦ .

والمسلمين ، ولا يقدمون الارتزاق من التعصب المذهبي على المصالح العليا للأمة الإسلامية ..

إن حواراً علمياً .. صبوراً يقوم به نفر من هؤلاء العلماء الحكماء ، لإنجاز هذا المقصد العظيم — تطهير التراث المذهبي من ثهم التكفير وأحكامه لمن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله — فهو الفريضة الفكرية الأولى ، التي نقودنا إلى فريضة وحدة أمة الإسلام .
ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ..

* * *

إن علينا أن نتعلم المنهج القرآني الذي لا يعم ولا يطلق الأحكام على الآخرين .. منهج : « ليسوا سواء » ^(١) .

* فاشيعة ليسوا سواء .

* وأهل السنة ليسوا سواء .

* والصوفية ليسوا سواء .

* والسلفية ليسوا سواء .

فعلينا أن نتوكل على الله ، ونختار المؤسسة العلمية المؤهلة بإندعوة وشرعية لهذا الحوار .. الذي نعلق عليه وعلى تجاحه الآمال الكبار إن شاء الله ..

* * *

(١) آل عمران : ١١٣ .

وإذا كنا قد اضطررنا - في هذه الدراسة - إلى تقديم نماذج من " الفواحد الفكرية " التي تتقاذفها مذاهب وتيارات فكرية عبر وسائل الاتصال الحديثة .. فإن الهدف من ذلك إنما كان (تشخيص الداء) طلباً (للدواء) .. وليس إشاعة جرائم هذا الداء بين العامة والجمهور .. ذلك أن تقنيات وسائل الاتصال الحديثة يجب أن توضع - دائماً وأبداً - في خدمة وحدة الأمة ، بدلاً من تسخيرها - كما هو الحال الآن .. في إشاعة " الفواحد الفكرية " بين عامة المسلمين وغير المسلمين .

وصدق الله العظيم : ﴿ وَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١١٠ ﴾ .
والله من وراء القصد .. منه نستمد العون والسداد والتوفيق ..

المحتويات

| الموضوع | رقم الصفحة |
|--|------------|
| كلمات | ٥ |
| ١ - تمهيد | ٩ |
| ٢ - حتى يكون التقريب حقيقياً | ١٦ |
| ٣ - مقال في التحذير من التكفير | ٢٩ |
| ٤ - مستويات الخطاب .. ومستويات المخاطبين | ٤٧ |
| ٥ - ثورة الإعلام المعاصر .. وإشاعة فتنة التكفير بين الجماهير .. | ٦١ |
| ٦ - التكفير الصوفي للوهابية | ٦٦ |
| ٧ - التكفير الوهابي للشيعة .. والصوفية .. والأشعرية .. | ٧٠ |
| ٨ - النزعة التكفيرية عند الشيعة | ٧٣ |
| ٩ حقائق .. وأوهام | ٨٨ |
| ١٠ - والآن .. ما العمل ؟! | ١١٣ |

طبع

بمطبعة وزارة الأوقاف

يسر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

أن يروود المكتبة الإسلامية والقارئ المسلم في جميع أنحاء العالم الإسلامي بأهميات الكتب التي صدرت عن المجلس ومنها :

أهميات كتب التراث الإسلامي

| | |
|---|---------------------------------------|
| سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد - الأجزاء من ١ إلى ١٢ | مختصر سيرة ابن هشام - الأجزاء ١ إلى ٢ |
| سقوط السيرة النبوية لأين كثير | إخلاص القول - الأجزاء من ١ إلى ٤ |
| يسائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز - الأجزاء من ١ إلى ٦ | نسخ الخوارق - الأجزاء من ١ إلى ١١ |

سلسلة الموسوعات الإسلامية المتخصصة

| | | |
|--------------------------|-------------------------|-----------------------------|
| الموسوعة القرآنية | موسوعة علوم الحديث | موسوعة أعلام الفكر الإسلامي |
| موسوعة الحضارة الإسلامية | موسوعة التشريع الإسلامي | |

المصحف الشريف

المصحف الشريف طباعة ٢ تون نسخة ذهب - المصحف العلم ٢٨ ترطفا للشيخ محمود خليل الحصري
المنتخب في تفسير القرآن الكريم باللغة العربية - المصحف المرقى ٢٢ شريفا للشيخ محمود خليل الحصري
مجلد فاخر طباعة أوفست ٢ تون وترجمته - المصحف الجود ١٠ شريفا للقراء عبد الباقط عبد الصمد
باللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية - مصحف إسماعيل محمود على البنا محمود خليل الحصري
والروسية والإسبانية والأندونيسية .

وهذه الكتب لكبار العلماء القدامى وكبار المحققين في العالم الإسلامي :

| | |
|--|--|
| موسوعة الفقه الإسلامي - الأجزاء من ١ إلى ٢٨ | حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين |
| الفتاوى الإسلامية مجلدات - الأجزاء من ١ إلى ٢٠ | الأحاديث القدسية مع تعليق كبار العلماء |
| | ينابيع الأحكام في معرفة الحلال والحرام |

مراكز البيع

| | |
|-------------------------------------|---|
| القاهرة ٩ شارع النبلاء - جاردن سيتي | ٢ شارع الأمير محمد بن عبد العزيز - ميدان التحرير |
| مكتبة مسجد النور بالعباسية | ٧٦ شارع الجمهورية (شوايف القرآن الكريم) |
| | الأسكندرية فرع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ٤٢ شارع سعد زغلول |

مواعيد العمل من ٩ صباحا إلى ٢ ظهرا

وتيسيرا على القارئ المسلم ومشاركة في تروود المكتبات الإسلامية بالمطبوعات التي صدرت عن المجلس - شاع هذه المنشوعات للجمهور بمعد التكلفة المنخفضة - مع إجراء نسبة خصم البيع بالتلف إذ أراد عدد النسخ الخاصة على بعض المكتبات الواسعة الناحية لتهدات الحكومة والمؤسسات العامة فيمكن البيع بالأجن على أقساط شهرية دون أية زيادة على أسعار التكلفة الفعلية